هرمان ملفل

أنا ومدختتي

ترجمة
ثابت خميس النعماني

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

عنوان الكتـــاب: أنا ومدخنتي
اســـم المؤلـــف: هيرمن ملفيل
اســـم المترجـــم: ثابت خميس النعماني
الموضـــــــوع: روايـــة
عدد الصفحات: 68 ص
القيـــــــاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 1000 / 2018 م - 1439 هـ
ISBN: 978-9933-38-060-1

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتـــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل او اقتباس، او ترجمة، اي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

هيرمَن ملفيل

أنا ومدخنتي

ترجمة: ثابت خميس النعماني

هيرمَن ملفيل

Herman Melville
(١٨١٩ - ١٨٩١م)

وُلد في مدينة نيويورك عام ١٨١٩. وكان من أبرز الروائيين في أمريكا. كتب موبي ديك، وهي واحدة من أشهر الروايات الأدبية. ترجع شهرته إلى هذه الرواية بشكل رئيس، لكنَّ كثيراً من أعماله الأخرى هي أيضاً إبداعات أدبية عالية المستوى؛ تمتزج فيها الحقيقة والخيال والمغامرة والرمزية البارعة. كتب ملفيل عن تجاربه بطريقة جذابة جعلته أحد أكثر الكُتَّاب شعبية في زمانه. وقد أضفى على مغامراته خيالاً خصباً وشكلاً فلسفياً، إلى جانب مهارةٍ فائقة في استعمال اللغة الإنجليزية الأمريكية.

يُعد ملفيل من الكتاب الذين يصعب وصفهم وإعطاء نمط قصصي معين لهم، فأدبه ينتقل من الرومانسية إلى الفلسفة إلى السيرة حيث يجول ملفيل في أعماق نفسه ويصف فلسفته في الحياة.

أهم أعماله: خيمة الهندي ١٨٤٧ - اومو ١٨٤٧ - السترة البيضاء ١٨٥٠ - موبي ديك (الحوت الابيض) ١٨٥١ - بيير (الغموض) ١٨٥٢ - قصص من بياز ١٨٥٦ - بيلي باد ١٩٣٤ - (بارتلبي النساخ) - الصادرة عن دار نينوى عام ٢٠١٠.

أنا ومدخنتي، عجوزان مدخنان رماديا الرأس، مقيمان في الريف.

يمكنني القول إننا راسخان قديمان هنا؛ خاصة مدخنتي العجوز، التي يزداد رسوخها كل يوم أكثر فأكثر.

ورغم أنني دائماً ما أقول، أنا ومدخنتي، كما اعتاد الكاردينال وُولسي[1] أن يقول "أنا ومليكي"، فإن هذه الطريقة الأنانية في الحديث، التي من خلالها أتقدّمُ على مدخنتي، جاءت بعيدة عن الحقائق؛ في كل شيء، باستثناء التعبير السابق، فإن مدخنتي هي من تتقدمني.

---

١ - Cardinal Wolsey: توماس وولسي (١٤٧٣ - ١٥٣٠): كاردينال إنجليزي، حين أصبح هنري الثامن ملكاً كلفه بالعديد من المهام، وحظي بسلطة كبيرة حتى اعتبره البعض ملكاً آخر. اهتم وولسي بفن العمارة، وخاصة بمنزله القديم قصر هامبتون كورت، والذي ما زال باقيًا حتى اليوم.

على بُعد ثلاثين قدماً من الطريق ذي الجوانب المعشوشبة، ترتفع مدخنتي - الهائلة، الضخمة على غرار هاري الثامن لو كان مدخنة - بكليتها أمامي وأمام كل مُلكياتي. هناك تقف بثبات فوق جانبٍ من أحد التلال، إن مدخنتي، مثل التليسكوب الوحش لأمير روس[1]، تميل عمودياً لترتطم بقمر التمام، هي أول ما يرحب بعين المسافر المقترب، وليست بآخر ما تلقي عليه شمس الأصيل التحية. إن مدخنتي، تتقدمني أيضاً في استقبال بواكير فاكهة المواسم. والثلج الذي يغطي رأسها يسبق ذاك الذي يعلو قبعتي؛ وكل ربيع، كشجرة زان مجوّفة، تبني أولى السنونوات أعشاشها فيها.

و لكن خلف الأبواب الداخلية، تتجلى رفعة مقام مدخنتي بكل جلاء. حين أكون جالساً في الغرفة الخلفية، على مبعدة من ذلك الشيء، واقفاً لاستقبال ضيوفي (الذين، أشك بالمناسبة، بأنهم يكثرون من الزيارة، لرؤية مدخنتي أكثر مني) أقف حينها، دون أن أتقدمها كثيراً، ولأكون دقيقاً، أقف خلف مدخنتي، التي هي، بالفعل، المضيف الحقيقي. وذلك ليس احتجاجاً مني، ولكن في حضرة من هم أفضل مني، آمل أن أكون على دراية بمنزلتي.

---

١ - Lord of Rosse: ويليام بارسون الثالث (١٨٠٧ - ١٨٤١): حاكم روس الثالث ويسمى أيضاً أمير أوكسمنتاون، وهو فلكي إيرلندي وباني أكبر تيليسكوب عاكس المسمى بـ"الليفياثان" في القرن التاسع عشر.

انطلاقاً من هذه الأسبقية المعتادة لمدخنتي عليّ، يصل الظن بالبعض إلى أنني قد رميت بنفسي في زقاق خلفي كئيب بكل معنى الكلمة؛ باختصار، إنني بكثرة وقوفي خلف مدخنتي ذات الطراز القديم، تحتّم علي أيضاً أن أتخلّف عن العصر، تماماً مثل التخلف عن اللحاق بأي شيء آخر[1]. ولكن لأقول الحقيقة، لم يسبق لي أبداً أن كنت صديقاً قديماً جريئاً، أو ما يدعوه جيراني القرويون بشخص ذي يدين منبسطتين إلى الأمام[2]. فعلاً، تلك الأقاويل عن تخلّف يديّ، كانت صحيحة إلى حد بعيد، لأن لي طريقة غريبة في التسكع ويداي موضوعتان خلف ظهري إذا ما أردت القيام بشيء ما. وفيما يتعلق بنزوعي للحَميِة بشكل عام، فهو أمر مؤكد، لإنني أستحضر حماية ظهر مدخنتي - التي هي، بالمناسبة، أمامي في هذه اللحظة - وهذا، صحيح أيضاً، في كلا الصورتين كنزوة وحقيقة. بإيجاز، إن مدخنتي تفوقني مقاماً؛ كتفوقها أيضاً، بذلك الانحناء المتواضع الذي أؤديه أمامها وأنا ممسك بالمجرفة والملاقط. أنني أشبه بخادم لها؛ مع أنني لا أقدم لها أي خدمات إطلاقاً، ولا هي تُملي علي شيئاً؛ لكن، إن كان ثمة شيء ما في قعرها، فمن الأفضل أن يؤخذ به إلى جانبٍ الأخر.

---

١ - كناية على التأخر والتمسك بالماضي.

٢ - أي شخص متطلع للمستقبل.

مدخنتي إقطاعية كبيرة هنا - إن ذلك الشيء الضخم المستبد، لا يُظهِر من هيئة المنزل الخارجية؛ إلا كل ما قد يَظهر من أي منزل. وعلى جاري العادة، في كل جدل عمراني، كما سيظهر الكثير منها بعد قليل، فإن أقوى الحُجج، كانت متأتية، لا من رغباتي، بل تبعاً لمدخنتي التي تمتلك، إلى جانب العديد من الأشياء الأخرى، الحظوة بمركزية المنزل لنفسها، غير تاركة لي شيئاً إلا الزوايا والثغور الناتئة.

لكنني ومدخنتي علينا أن نشرح؛ وبما أن كلينا سمين بالأحرى، قد يتوجب علينا في القول الإطناب.

في تلك المنازل التي هي على وجه التحديد بيوت مزدوجة - ويكون هذا، حين تكون الصالة في المنتصف - عادة ما تكون المواقد على جوانبَ متقابلة؛ بحيث إن كان فرد ما من سكان المنزل يدفئ نفسه بنار تتقد في تجويف على الجدار الشمالي، قولوا إن فرداً آخر، شقيق ذلك السابق، ربما، قد يكون واضعاً قدميه فوق شعلة قبالة مدفأة في الجدار الجنوبي - هٰكذا يجلس الاثنان بإنصاف ظهراً لظهر. هل هذا شيء جيد؟ فلتعرضوا الأمر على أي إمرءٍ ذو حس أخويّ لائق. أفلا يكتنف الأمر إلى حد ما شيء من النَّكد؟ لكن من المحتمل جداً أن هذا الأسلوب في بناء المداخن جاء من مهندس معماري ابتُلي بعائلة مُحبة للخصام.

مجدداً إذاً، تقريباً كل موقد عصري له أنبوب مدخنة منفصل - منفصل على طوله، من المدفأة وصولاً إلى قمة المدخنة. على الأقل هذا النوع من الترتيبات قد يعتبر مرغوباً. ألا يبدو هذا ضرباً من التعالي، والأنانية؟ زِد على ذلك، أن كل هذه الأنابيب المنفصلة، بدلاً من أن يكون لها أسس بنائها الخاصة، أو بدلاً من جمعها معاً في دعامة متحدة في منتصف المنزل - بدلاً من ذلك، أقول، أن كل أنبوب يُدس خلسة كخلايا النحل داخل الجدران؛ فتنتشر تلك الأخيرة هنا وهناك، أو أنها مجوفة بدهاء، في كل مكان حرفياً، وأيضاً، النتيجة أنها، تكون واهية بشكل أو بآخر، إن السبب الرئيس وراء أسلوب بناء المداخن هذا هو توفير المساحة بكل تأكيد. في المدن، حيث تباع الكثير منها - المساحات - بالبوصة، يتم الاحتفاظ بمساحة صغيرة لمدخنة مبنية على أسس رحبة؛ وكمعظم الرجال النحيفين، الذين يبدون عموماً طوال القامة، كذلك هو الأمر مع هذه المنازل، التي تفتقر للاتساع، يجب التطاول في بنائها. هذه الملاحظة تحمل وجه الحقيقة حتى فيما يتعلق بالكثير من المساكن الأنيقة، التي بناها أرفع الأسياد مقاماً. ومع هذا، حين أراد ذلك السيد النبيل، لوي لو غراند الفرنسي، بناء قصر لصديقته، السيدة، المدام دو مانتنون[1]، بناه ولكن ثمة قصة شاعت - بأنه في

---

١ - قد يكون ما يقصده ملفيل قوله هو Madame de Maintenant بمعنى سيدة الوقت الحالي، حيث عرف عن لويس الرابع عشر ميله إلى تغيير عشيقاته بشكل دائم.

الحقيقة بناه على طراز كوخ. ولكن، لكم كان رباعي الأضلاع ذاك خارجاً عن المألوف، فسيحاً، وعريضاً بفدادينه الأفقية، لا الرأسية. إن قصراً كهذا، بكل ما يزخر به طابقه اليتيم من روعة الرخام اللانغوديكي[1]، لايزال قائماً حتى هذا اليوم في حدائق فيرساي. يمكن لأي رجل أن يشتري قدماً مربعاً من أرض ما ويغرس سارية إستقلال فيها؛ لكن الأمر يتطلب ملكاً ليعزل فداديناً كاملة لأجل جراند تريانون[2].

و لكن ما أصعبه من أمرٍ في هذه الأيام؛ علاوة على ذلك، فإن ما أُسس على ضرورة ذات يوم، صار الآن مطيّة للتبجح. ثمة منافسة واسعة النطاق في المدن لتعمير المباني الطويلة. إذا ما بنى سيد منزله بارتفاع أربعة طوابق، وجاء آخر إلى جواره وبنى بارتفاع خمسة طوابق، فإن السابق، كي لا يُنظر إليه بدونية، يرسل في طلب مهندسه المعماري فوراً مُصفقاً بطلب طابق خامس وسادس فوق أربعته السابقة. ولن يركن ذلك السيد للراحة حتى يصل لمبتغاه، حتى يستولي

---

١ - يستخرج الرخام اللانغوديكي الأحمر من عدة أماكن في منطقة لانغودوك-روسيّو وغالباً ما يستخدم في الهندسة المعمارية؛ كبلاط الجدران والمواقد ويطعّم بالخشب والعاج.

٢ - اسم القصر المقصود وهو يتخذ مكاناً في الجزء الشمالي الغربي من ميدان فيرساي، شُيد بناء على طلب الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ليكون مُعتزلاً له ولعشيقته آنذاك فرانسواز آتيناي المعروفة بماركيزة مونتيسبون.

على الطريق في وقت الغسق ويلاحظ كيف أن طابقه السادس يعلو فوق خامس جاره - وعندها فقط سيغمره شعور عظيم بالرضى.

يبدو لي، أن هؤلاء الناس، بحاجة إلى مجاورة الجبال، حتى تَستخرج منهم فكرة محاكاة الارتفاع تلك.

إذا ما اعتُبر منزلي شديد الاتساع، ومتشامخاً بأي حال، فحري أنني قد أبدو مهتماً بالمناظرات بناءً على ما سبق ذكره، لكنني لم أفعل شيئاً سوى أن طويت نفسي عنها خلف قناع الرأي العام، مدغدغاً بكياسة من تحته غروري الذاتي. سوء فهم كهذا يجب أن يمّحي، ذلك بسبب تنازلي الصريح عن تلك الأرض المجاورة لمستنقع أشجار جار الماء الخاص بي، والتي بيعت الشهر الماضي لقاء عشرة دولارات للفدان، ولقد توقعت أن يكون هذا شراءً مُستعجلاً؛ لأن البيوت الواسعة في هذه النواحي فيها الكثير من المساحة، وهي زهيدة الثمن. زهيدة هي - حقاً إنها بسعر التراب - تلك التربة، حتى أن أشجار دردارنا دفعت بجذورها فيها، وعلقت أغصانها الكبيرة فوقها، بكل طيش وإسراف. أضف إلى ذلك أيضاً أن كل المحاصيل تقريباً، بثت بثوثها فيها، حتى البازلاء والفجل. ثمة مزارعون من بين ظهرانينا، ممن هم على استعداد ليمروا على حقولهم ذات العشرين فداناً، واخزين الأرض بأصابعهم، مُسقطين هنا وهناك بذرة خردل، حتى ليُظن أنهم

فلاحون بائسون، محدودي العقل. إن نظرة على أشجار الهندباء في مروج النهر، ونباتات "لا تنسني" بمحاذاة دروب الجبل، تجعل المرء يُدرك فوراً أنها لا تترك وضعاً اقتصادياً على حاله. في بعض المواسم، أيضاً، تطلُع بذور ذرتنا هنا وهناك على رمح، يبدو منفرداً ووحيداً كبرج كنيسة. غير عابئٍ بحشد نفسه أكثر، فمن المعلوم أن هنالك صفقة رابحة من المساحات. العالم شاسع، العالم أمامنا برمته، تقول الذرة. والأعشاب الضارة، أيضاً، من المذهل كيف تنتشر. لا مثيل لحصادها - بعض مراعينا تصنف كمنطقة الإلزاس[1] للأعشاب الضارة. كذلك الأمر بالنسبة إلى الحشائش، كل ربيع يبدو الأمر كما لو أن كوسوث[2] يخطب في من يطلق عليهم إسم الشعوب. الجبال، أيضاً، في اجتماع معسكرها المعتاد. للسبب نفسه، للاكتفاء الكلي بالمساحة، ظلالنا تسير وتنتكس، مروراً بحفرها وتحولاتها البديعة،

---

١ - الإلزاس: بالفرنسية: (Alsace)، بالألمانية: (Elsass) هي منطقة ثقافية، ولغوية، وتاريخية، وإدارية في شرقي فرنسا وعاصمتها هي ستراسبورغ. كانت تاريخياً محل نزاع مع ألمانيا.

٢ - Lajos Kossuth: ليشوس كوسوث (١٨٠٢ - ١٨٤٩) محام هنغاري، عمل صحفياً وسياسياً وأصبح حاكم ولاية ثم رئيس المملكة الهنغارية خلال ثورة (١٨٤٨ - ١٨٤٩)، اشتهر بموهبته الكبيرة في الخطابة والمناظرات السياسية، كما كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة جعلته مثلاً لقوة التأثير على الآخرين.

مثل الحارس الإمبريالي العجوز[1] في الشومب دو مارس[2]. أما بالنسبة للتلال، خاصة حيث تتقاطع بدروبها المُطلة على قُرانا المتعددة، فإنها تعطي إشعاراً لكل من يهمهم الأمر، أن في مقدورهم أن يأتوا ليحفروها ويجتثوها، دون أن يدفعوا سنتاً واحداً، لا شي سوى الحظوة بالتقاط ثمار توت العليق. إن الغريب الذي دُفن ذات يوم هنا، أي مالك أرض ليبرالي الهوى، من بيننا سيحقد عليه لنزوله عمق ستة أقدام في هذه المروج الصخرية؟

مع ذلك، في النهاية فإنها تظل زهيدة الثمن، كحال أرضنا، ومع أنها تُداس تحت الأقدام، أنا، عن نفسي، فخور بها لما تحوز عليه؛ وخصوصاً بأُسودها الثلاثة العظيمة - السنديانة الكبيرة، جبل أوغْ، ومدخنتي.

---

١ - old imperial guard: بدأ الحرس الإمبريالي كمجموعة صغيرة من نخبة الجيش الفرنسي تحت إمرة نابليون المباشرة، ولكنهم تطوروا بمرور الزمن وحظوا بمكانة خاصة، تم توزيع أعضائها إلى ثلاثة أقسام: الحارس العجوز والحارس النَصوف والحارس الشاب.

٢ - Champs de Mars: أو حقول المريخ، وهي ساحة عامة خضراء، تقع بالحي السابع من باريس، في المساحة المحصورة بين برج إيفل والمدرسة العسكرية، وتعتبر من أشهر الساحات في فرنسا؛ ليس فقط لما تعطيه من جمال بصري بل أيضاً لما شهدته من أحداث كثيرة منذ إنشاءها.

هناك حيث نسكن أنا ومدخنتي، لا يتجاوز ارتفاع معظم المنازل طابقاً ونصف الطابق؛ وقليل منها ما يتجاوز الطابقين، يبلغ منزلي في العرض قرابة ضعف ارتفاعه، من العتبة حتى المزاريب - والفضل في هذا يعود لحجم مُكوِّنه الأساسي - إلى جانب وضوح ذلك في هذا المنزل، كما في كل ربوع هذا البلد الكبير، ثمة ما يكفي من المساحة، وما يزيد عنها، لكلينا.

هيكل المنزل القديم مصنوع من الخشب - مع أنه يبيّن صلابة المدخنة، المصنوعة من الطوب. بينما المسامير الكبيرة المُشَكَّلة طَرقاً، تُشد على الألواح، إلا أنها غير معروفة في هذه الأيام المُنْحَطّة، كذلك الأمر بالنسبة للطوب الكبيرة في جدران المدخنة، لابد أن المهندس المعماري أثناء عمله على المدخنة كان يضع نُصب عينيه هرم خوفو؛ فهي تبدو مماثلة لذلك المبنى الشهير، إلا أن معدل تضاؤلها باتجاه القمة قليل جداً، كما أنها مجتزأة، من منتصف المنزل تماماً حيث أنها ترتفع من القبو، مروراً بكل طابق بشكل متتال، حتى، أربعة أقدام مربعة، وهي تسرب المياه من عمود القمة[1] المبتور من السقف، مثل حوتٍ ذي رأس سنداني[2]، يمخر عباب

---

١ - ridge-pole: ركيزة أفقية تمتد مع قمة السقف وتثبت عليها العوارض.

٢ - anvil-headed whale: وهي نفس التسمية التي استخدمها إحسان عباس في ترجمته لرواية "موبي ديك" لهيرمان ملفيل.

قمة موجه. معظم الناس، مع ذلك، معجبون بها، في تلك الجزئية بالذات، فهي تشكل مرصداً لتهدمٍ متماسك.

إن سبب مظهرها الغريب بالأحرى يعود لأن قمة السقف تتماس بأرض شديدة الحساسية. كيف عساي أوضح هذا، منذ عديدٍ من السنوات الماضية حين أصبح السطح الجملوني[1] الأصلي للبيت القديم كثير التسريب، قام مالك مؤقت باستئجار زمرة من الخشابين، وبمناشيرهم المتقاطعة الضخمة، أخذوا ينشرون السقف الجملوني القديم حتى أزالوه، بكل ما فيه من أعشاش طيور، ونوافذ منومة[2]. واستبدل بسقف عصري، يصلح لبيت خشبي في سكة حديد لا لمسكن سيد في الريف القديم. هذه العملية - قَشط الهيكل لما يقارب الخمسة عشر قدماً - كانت، ذات تأثير على المدخنة، أشبه بزحف مدود الربيع[3] الضخمة. مُخلّفة ورائها مياهاً ضحلة غريبة حول المدخنة - مما جعل مظهرها مُنحسراً. والآن وصل هذا الشخص إلى حد اقتطاع

---

١ - gable roof: جزء الجدار العلوي المثلث الشكل بين رأس الجزء العلوي وقاعدته؛ قمة مسنمة.

٢ - dormer windows: عبارة عن هيكل مسقوف على شكل مثلث، غالباً يحوي نافذة، تظهر بشكل عمودي فوق مستوى سطح السقف. تُعرف أيضاً باسم نافذة أعلى السطح.

٣ - spring tides: يقصد هنا بحركة المد والجزر في فصل الربيع بعد اكتمال البدر أو مع ظهور قمر جديد.

خمسة عشر قدماً من المدخنة نفسها. في الواقع إن قطع رأس مدخنتي الملكية العجوز، لهو فعل راديكالي - إن لم يكن في هذا تلطيفاً للحقائق، يبدو لي أن هذا الشخص كان جزار طيور، ولهذا السبب، أسند إليه هذا النوع من عمليات ليّ الرقاب، كان من اللازم إرسال ذلك المالك السابق إلى الأجيال القادمة في نفس العربة مع كرومويل[1].

بحفاظها على شكلها الهرمي، وَسع تقليل المدخنة المفرط قمتها المستدقة. كان مُفرطاً، أنا أقول، لكن فقط في تقدير من لا يملكون عيناً تصويرية. لِمَ أكترث، إن كان، من غير الملاحظ أن مدخنتي، كمواطنة حرة من هذه الأرض الحرة، واقفة على أساس مستقل بنفسه، يمر بها الناس، متسائلين كيف لمثل فرن القرميد هذا، كما يسمونها، أن يكون مستنداً على عوارض ودعامات خشبية فقط؟ لِمَ أكترث؟ لسوف أقدم للمسافر كأساً من السويتشل[2]، إن هو ابتغاه؛ لكن هل أنا مُلزمٌ بإقناعه

---

١ - Cromwell: يحتمل أن ميلفل كان يقصد إما أوليفر كرومويل وهو قائد عسكري وسياسي إنجليزي، يعتبره البعض ديكتاتوراً وقد هزم الملكية في الحرب الأهلية ليجعل إنجلترا جمهورية، أو توماس كرومويل وهو رجل دولة إنجليزي شغل منصب وزير الملك هنري الثامن وأدخل تحديثات في الحكومة من بالتقليص من سلطة النبلاء والكنيسة كما عرف عنه أنه كان مغروراً.

٢ - switchel: شراب مكوّن من مزيج الماء والخل وغالباً ما ينكّه بالزنجبيل والعسل والسكر الأسمر أو شراب القيقب.

بحلاوة المذاق؟ أصحاب العقول النيّرة يرون، في بيتي القديم ومدخنتي، شبهاً بمباني إيليفنت وكاسل[1] الطيبة القديمة.

كل القلوب المرهفة لسوف تتعاطف معي في ما سأضيفه الآن. إن العملية الجراحية، المشار إليها في الأعلى، كشفت بالضرورة للهواء المفتوح عن جزء قد كان تحت الغطاء عن المدخنة، وأراد أن يبقى كذلك، ولأنها، لم تُبنَ على ما يسمونه "طوب-الطقس"، كانت العاقبة، أن المدخنة، رغم هيكلها المتين، عانت وليس قليلاً، من العُرضة الشديدة للتعرية؛ إضافة، لعدم قدرتها على أقلمة نفسها سابقاً، فبدأت بالتآكل - مُظهرة بقعاً شبيهة بتلك التي تظهر مع أعراض مرض الحصبة. عندئذٍ، كان المسافرون والعابرون في طريقي، يلوحون بأيديهم، ضاحكين؛ "انظروا إلى أنف الشمع ذاك - أنظروا كيف يذوب!". ولكن لِمَ أكترث؟ إن هؤلاء المسافرين نفسهم سيبحرون في عُرض البحر ليتأملوا منظر كِنلورث[2] وهي تتفسخ، ولسبب وجيه جداً: أقول - أن التحلل من بين كل الفنانين التصويريين، لديه اليد

---

١ - elephant-and-castle: منطقة بجوار تقاطع الطريق الرئيسي في جنوب لندن.

٢ - Kenilworth: قلعة كِنلورث الموجودة في مدينة تحمل نفس اسمها في إنجلترا. يعود تاريخها إلى العصور الوسطى ورغم انهيار الكثير من أجزائها إلا أن الأقسام المرممة اعتبرت تحفة معمارية قديمة ووجهة سياحية جذابة منذ القرن الثامن عشر.

الطولى، بالتعريشات. في الحقيقة، غالباً ما فكرت أن المكان الأنسب لمدخنة قديمة هو إنجلترا القديمة المغطاة بتعريشات نبات اللبلاب.

عبثاً حذرتني - بكل ما يحتمل أن يكون ظاهراً عليها، من نية خفية، منذ أمد طويل - زوجتي بشكل رسمي، أنه ما لم يتم عمل شيء ما، وبسرعة، فسوف نحترق عن بكرة أبينا، بسبب الحفر المتهالكة من الأجزاء المُبقعة سالفة الذكر، حيث تلتقي المدخنة بالسقف. "يا زوجتي" قلت أنا، "من الأفضل كثيراً أن يحترق بيتي تماماً، من أن يتم زحزحة مدخنتي، حتى لبضعة أقدام فقط. يسمونها أنف الشمع، حسن جداً، لست أنا بمن يقرص أنف سيدته". لكن في النهاية فإن الرجل الذي كان لديه رهن على المنزل ترك لي رسالة، يذكرني فيها أنه إذا كان من المسموح لمدخنتي البقاء في تلك الحالة السيئة، فستكون وثيقتي التأمينية لاغية. كان ذلك نوعاً من التنبيه حتى لا أكون متهاوناً. في كل أنحاء العالم، يخضع الشكلي للمضموني. المُرتهن لم يهتم، فاهتم المُرهن.

إذا فقد أُجريت عملية أخرى. أُزيل أنف الشمع، ووضع واحد جديد في محله. عذراً على التعبير - فقد وضعه بنّاء أحْوَل العينين، وقد كان، في ذلك الوقت، يعاني من ألم موضعي في ذلك الجانب - فوقف الأنف الجديد مائلاً قليلاً، في نفس الاتجاه.

إنني فخور بشيء واحد، على كلٍ، وهو أن الأبعاد الأفقية للجزء الجديد لم يتم تصغيرها.

رغم الاتساع الذي ظهرت عليه المدخنة من السقف، فهو لا شيء مقارنة برحابتها في الأسفل. في قاعدتها المتمركزة في القبو، الذي تبلغ مساحته بالتحديد اثنا عشر قدماً مربعاً؛ وبالتالي فهو يغطي بالتحديد مائة وأربعة وأربعين قدماً ظاهرية. يا له من استيلاء على التيرا فيرما[1] بالنسبة لمدخنة، ويا له من عبء هائل على هذه الأرض! في الحقيقة، كان هذا الأمر لأننا أنا ومدخنتي لم أي يكن لنا أي تدخل في تشكيل أي جزء من عِبئها القديم، حتى أن ذلك المتجول الهُمام، أطلس القديم[2]، لم يكن ليستطيع البقاء بكل شجاعة تحت كومتها. إن هذه الأبعاد المعطاة، قد تبدو جميلة، ربما. لكن، شأنها شأن الحجارة الجلجالية[3]، التي اتخذها يوشع[1] تذكاراً لمروره على الأردن، أفلا يحق لمدخنتي أن تبقى، حتى هذا اليوم؟

---

١ - terra firma: كلمة من أصل لاتيني تعني الأرض الصلبة أو الأسطح الثابتة.

٢ - Atlas: كان أطلس أحد جبابرة الأساطير الإغريقية وقد حُكم عليه بأن يحمل عماد السماء للأبد بعد معركة الجبابرة Titanomachy.

٣ - Gilgal: جلجال؛ المكان الذي خيّم فيه بني إسرائيل بعد عبورهم نهر الأردن، وتحكي المرويات اليهودية أن يوشع أمر قومه بأخذ أحد عشر حجراً من النهر، حجراً عن كل عشيرة؛ ووضعها هناك للذكرى.

غالباً جداً ما أنزل إلى قبوي، وببالغ الانتباه أُعاين تلك المساحة البنائية الشاسعة. أقف مطولاً، وأتأمل كثيراً، وأتفكر ملياً. إن لها مظهراً كهنوتياً عميقاً أسفل القبو الظليل هناك، حيث تتواجد الكثير من الممرات المقنطرة، وما يفوقها عدداً من الجداول الكئيبة، المماثلة في ظلمتها، للأعماق الرطبة في الغابات البدائية. أسرتني هذه الفكرة بقوة كبيرة، كنت متوغلاً في الإعجاب بمدخنتي بعمق كبير، حتى أنني في يوم ما - كنت حينها فاقداً لصوابي بعض الشيء، حين أفكر بالأمر الآن - أتيت بمجرفة من الحديقة، استعددت للعمل، وأخذت أحفر حول الأساس، خاصة عند تلك الأركان البعيدة. تدفعني بغموض أحلامي بالضرب في نصب الأرض التذكاري المتهالك من الأيام الغابرة هذا، بينما، وسط كل هذه الظلمة، تسرب ضوء الجنة، حينما ألقى البنّائون بأحجار الأساس، لعل قيظ شمسٍ أغسطسية قد لفحهم، أو أن عاصفة مارسيّه قد قذفت بهم. ومرة حين كنت أجسها بمجرفتي الصماء متحسساً، كم كنت مغتاظاً من تلك المقاطعة الوقحة من أحد جيراني، والذي كان ينادي ليراني في شأن بعض الأعمال، فأخبروه بأنني في الأسفل فقال أن لا حاجة لإزعاجي بالصعود

---

١ - Joshua: يوشع بن نون وهو الشخصية المحورية في سِفر يوشع وقد قاد بني إسرائيل بعد وفاة موسى. ويقال إنه كان أحد أنبياء الله في المرويات الإسلامية.

للأعلى، ولكن هو من سينزل إليّ؛ وهكذا، دونما إشعار، ودون سابق تنبيه، وجدني على حين غرة، أحفر في قبوي.

"تحفر بحثاً عن الذهب، سيدي؟".

"كلا، يا سيدي" أجبت أنا، محدقاً، "كنت فقط - أمم - فقط - أقول إنني كنت فقط أحفر - حول مدخنتي".

"آه، تفكك التربة، لتجعلها تكبر، يا سيدي. أفترض أنك تعتبر مدخنتك صغيرة جداً؛ إنها بحاجة لمزيد من التطوير، لاسيما في القمة؟".

"سيدي!" قلت أنا، ملقياً بالمجرفة، "لا تتدخل في خصوصياتنا. أنا ومدخنتي -".

"خصوصيات؟".

"سيدي، إني أرى في هذه المدخنة قليلاً من كونها كتلة بنائية وأكثر كشخص. إنها ملكة المنزل. وما أنا سوى شيء وضيع ومُعذب".

في الحقيقة، ما كنت لأسمح لأي استهزاء بأن يطال شخصي أو مدخنتي، ولم يحدث مجدداً أن تحدث زواري عنها على مسمعي، دون إقران بعض المديح مع الذكر. إنها جديرة الاستحقاق باحترام معتبر. تقف هناك، منفردة ووحيدة - لا كمجلس وزراء من عشرة أنابيب، بل بكل قداسة جلالته في روسيا، اتحاد قوامه مستبد واحد.

حتى بالنسبة إلي، تبدو لي أبعادها، في أوقات ما، مذهلة. إنها لا تبدو كبيرة جداً - لا، ليس حتى في القبو. بالعين المجردة، حجمها قد يبدو كذلك لكن يستعصي تقديره تماماً، لأن جانباً واحداً فقط يمكن تلقيه منها في كل مره؛ وقل أن جانباً واحداً يمكنه أن يُظهر فقط اثني عشر قدماً، إن هذا قياس خطي. لكن من ثم، كل جانب أخر يبلغ طوله اثني عشر قدماً؛ ومن الواضح أن المجموع يشكل مربعاً، واثنا عشر في اثني عشر مرة يساوي مائة وأربعة وأربعين. وهكذا، يمكن الحصول على تصوّرٍ كافٍ عن حجم هذه المدخنة فقط بنوع من العمليات الحسابية المتقدمة بواسطة معادلة أقرب لتلك الأساليب التي تُحسب بها المسافات المذهلة للنجوم الراسخة.

يصعب القول، أن جدران منزلي خالية تماماً من المواقد. فهي كلها تجتمع في المنتصف - في المدخنة المركزية الكبيرة الوحيدة، فوق الجوانب الأربعة كلها والتي هي عبارة عن مدافئ- صفين من المواقد - وبذلك عندما، يدفئ أفراد عائلتي وضيوفي أنفسهم في مُختلف الحجرات، ذات ليلة شتائية باردة، قبل الانكماش على أنفسهم، ومع أنهم قد لا يكونوا قد فكروا بهذا الشكل وقتها، تبادل وجوههم النظرات لبعضها، أجل، إن أقدامهم كلها تشير إلى مركز واحد؛ وإذا ما خلدوا إلى النوم في مخادعهم، ينامون جميعاً حول مدخنة دافئة

واحدة، ككثير من الهنود الايروكويّن[1]، في الغابات، الذين يتحلقون حول كومتهم الوحيدة من الجمر. وتماماً كما يتم تجهيز نار الهنود وتقديمها، ليس لإبقائهم مرتاحين فقط، وإنما أيضاً لإبعاد الذئاب، والوحوش الضارية الأخرى، كذلك هي مدخنتي، بدخانها الظاهر في القمة، تبعد اللصوص المتسكعين عن المقاطعات - ما الذي عساه يجعل لصاً أو قاتلاً يتجرأ على اقتحام مسكن، مدخنته تصدر مثل هذا الدخان المتواصل - منذرة بأنه إن لم يكن النزلاء نشطين، فنيرانهم كذلك على الأقل، وفي حالة حدوث إنذار، فمن السهل إشعال الشموع، إن لم نقل شيئاً عن البنادق.

لكن بفخامة كفخامة المدخنة - أجل، إنها أشبه بمذبح عالٍ ضخم -، من الخليق الاحتفال بهذه الكتلة المباركة أمام بابا روما، وكل كاردينالاته، ولكن هل يوجد شيء مثالي في هذا العالم؟ يوليوس قيصر، ألم يكن شديد العَظمة، قبل أن بروتوس وكايوس وأنتوني والبقية كانوا أكثر منه عظمة. مدخنتي، ألم تكن عظيمة في حجمها، إلا أن حجراتي

---

١ - Iroquois Indians: الإيروكوي، اسم رابطة قبائل الأمريكيين الأصليين، في فترة الاستعمار كانوا معروفين بـعِصبة الإيروكوي ولاحقاً بحِلف الإيروكوي وسماهم الإنجليز بالأمم الخمس، وتتألف من قبائل: موهاك، أونينداجو، أونايدا، كايوجا، سانيكا، ولاحقاً انضمت إليهم قبيلة تاسكورورا ليصبح اسمها "الأمم الست".

كانت أكثر اتساعاً. كم مرة أخبرتني زوجتي بكل رثاء، أن مدخنتي، شأنها شأن الأرستقراطية الإنجليزية، تلقي من حولها بظل منكمش. إنها تؤكد على أن تلك المضايقات المنزلية تنشأ - بشكل أكثر تحديداً من التوسط العنيد لموقع المدخنة. اعتراضها الأكبر هو أنها تنتصب في منتصف الطريق؛ حيث يفترض أن تكون هناك صالة استقبال جميلة. في الحقيقة، لا وجود لصالة بأي مكان في المنزل - لاشيء سوى موضع تنزيل مربعي الشكل، إذا ما دخلتم من الباب الأمامي الواسع. إنه موضع تنزيل كاف لمساحة غرفة، إني أعترف بذلك، لكنه لا يرقى إلى منزلة صالة. الآن، بما أن الباب الأمامي في منتصف مقدمة المنزل تماماً، فهو يقابل المدخنة داخلياً. في الواقع، إن الجدار المقابل لموضع التنزيل تشكله المدخنة فقط، وبالتالي هو متأتٍ من التناقص التدريجي للمدخنة - يبلغ عرضه أقل بقليل من اثني عشر قدماً. يتسلق المدخنة في هذا الجزء سُلّم - بثلاث منعطفات، وثلاث مواضع تنزيل ضئيلة، تتصاعد نحو الطابق الثاني، حيث يوجد هناك-ما يشبه رواقاً ضيّق المساحة، فوق الباب الأمامي، يقل طوله عن اثني عشر قدماً، يقود لغرفٍ على كلا الجانبين. هذا الرواق، بالطبع، مُسيّج؛ وبالتالي، بالنظر إلى الأسفل فوق السلالم، وكل مواضع التنزيل تلك معاً، بالإضافة لتلك الرئيسية في القاع، تبدو ذات شبه غير قليل بشُرفة للموسيقيين، كتلك الموجودة في بعض المساكن القديمة البهيجة، من العصور الإليزابيثية. هل

أحدثكم عن نقطة ضعف؟ تعزّ علي بيوت العنكبوت هناك، وفي أوقات كثيرة أقبض فيها على الشمطاء[1] بالجرم المشهود وهي تكنسها بمكنستها، فتحصل بشأنها الكثير من المشاحنات مع زوجتي وبناتي.

و الآن السقف، بالحديث عن المكان الذي يمكنكم دخول المنزل منه، فذاك السقف، هو في الواقع، سقف الطابق الثاني، لا الأول. الطابقان الاثنان جُعلا واحداً هنا؛ لكي يتصاعد هذا السلم الملتف، الأمر يبدو كما لو أنكم ذاهبون إلى الأعلى داخل برج فارع الطول، أو منارة. في المهبط الثاني، في منتصف الطريق صعوداً إلى المدخنة، ثمة باب غامض، يفضي إلى خزانة خفية؛ وهنا أحتفظ بمشروبات عجيبة، من اختياري، ذات نكهة غامضة، صنعت هكذا بالرعاية المتواصلة والنضج البطيء بسبب حرارة المدخنة اللطيفة، مُقطراً عبر دفء تلك الكتلة البنائية. لا يوجد نبيذ أفضل من ذاك المسافر في رحلات إلى الجزر الهندية؛ ومدخنتي بحد ذاتها مدار استوائي. إن مقعداً بجانب المدخنة في يوم نوفمبري يعود بالنفع للمريض المعتل؛ كموسم طويل يقضيه المرء في كوبا. غالباً ما أفكر كيف كان العنب لينضج قبالة

---

١ - استخدم هيرمان ملفيل كلمة Biddy وتعني المرأة الكبيرة المشاكسة والمزعجة، كما تقال لعاملة المنزل العنيدة، وقد ارتأينا استخدام كلمة الشمطاء لعلها تكون قريبة بما يكفي من المعنى.

مدخنتي. وكيف لو كانت براعم زهرة إبرة الراعي الخاصة بزوجتي هناك! براعمٌ في ديسيمبر. بيضها، أيضاً - لا تستطيع إبقاءه على مقربة من المدخنة، درءاً للتفقيس. آه، يا له من قلب دافئ ذلك الذي تملكه مدخنتي.

كم مرة واجهتني زوجتي بخصوص صالة إستقبالها الكبيرة المنتظرة، والتي كان من المفترض أن تشق طريقها بسلاسة عبر المدخنة، من إحدى نهايات المنزل إلى الأخرى، وتدهش كل الضيوف باتساعها السخي. "لكن، يا زوجتي" قلت أنا، "المدخنة - فكري بالمدخنة: إذا هُدم الأساس، فما الذي سيدعم البُنية العلوية؟" "أوه، ستكون هذه مهمة الطابق الثاني". الحقيقية هي، أن النساء، إلى جانب عدم معرفتهن أي شيء عن حقائق العمارة، ما تزال زوجتي، مع ذلك، تتحدث عن تطبيق إدخالاتها وتقسيماتها. لقد قضت الكثير من الليالي الطويلة تضع خططها؛ متخيلة بناء صالتها المتبجح بها عبر المدخنة، كما لو أن جلالتها كانت محض رمحٍ من قمة نبات الحُميّض. على الأقل، قمت بتذكيرها بلطف أنه بغض النظر عن تقليلها لشأنها، فقد كانت المدخنة حقيقية - واقعاً، حقيقة جوهرية، وسوف يؤخذ هذا بالحسبان بشكل جيد، في كل مخططاتها، لكن هذا لم يكن ذا نفع كبير.

أما هنا، فأتوق باحترام أن تأذن لي هي، أن أقول بضع كلمات في حق زوجتي المقدام هذه. مع أنها تبلغ من العمر نفس سنوات عمري تقريباً، إلا أنها شابة في الروح مثل مهرتي الصغيرة الصهباء، تريجر[1]، التي أسقطتني من على صهوتها في الخريف الماضي. والأمر الإستثنائي، أنه رغم انحدارها من أسرة تعاني من آلام المفاصل، إلا أنها منتصبة كصنوبرة، لم يسبق لها أن عانت من أي آلام؛ مقارنة بحالي مع عرق النسا، الذي أكون أحياناً مشلولاً بسببه كأي شجرة تفاح عجوز. أما هي فلم تعانِ أكثر من ألم أسنان. أما بالنسبة إلى سمعها - هَبني أن دلفت إلى المنزل بجزمتي المغبرتين، حتى تصبح بعيداً فوق في العلية. وأما بصرها - فالشمطاء - خادمة المنزل، تخبر خادمات أناس آخرين، أن سيدتها تستطيع رصد بقعة على المنضدة مباشرة من خلال طبق قصدير، موضوع بشكل متعمد لإخفائها. إن مَلكاتها متيقظة كأطرافها وحواسها. لا خطر من أن تموت حَرمي سُباتاً. ففي أطول ليلة في السنة عرفتها مضطجعة في تيقظ، تخطط لحملاتها ليوم غد. إنها مُستعرِضة بشكل تلقائي.

إن الحكمة "**أياً ما وُجد، فهو صواب**"، ليست لها. إن حكمتها هي "**أياً ما وُجد، فهو خطأ**"؛ وما زاد وجوده، وجب تغييره؛ وما استمر

---

١ - Trigger: تريجر، اسمها يعني الزناد الذي يضغط عليه بالإصبع لإطلاق النار.

وجوده كثيراً، وجب تغييره فوراً. حكمة مرعبة لزوجة رجل عجوز حالم وناعس مثلي، أمر على أيام الأسبوع كأيام للاسترخاء، ومدفوعاً بذعرٍ سَبتي[1] من العمل الدؤوب. في أيام الأسبوع، أنحرف عن طريقي مسافة ربع ميل، لأتجنب مرأى أي امرئ يعمل.

قد يكون صحيحاً، أن توافق الأزواج مع بعضهم صنيعة سماوية، لكن زوجتي ما كانت لتكون إلا زوجة لبيتر العظيم[2] أو بيتر الزمار[3]. كم كانت لتنظم تلك الإمبراطورية المتناثرة في نسق واحد، كما تفعل حين تلتقط المتواري من مخلل الفلفل للآخرين وهي مُضناة بلا كلل.

لكن أروع شيء هو، أن زوجتي لا تفكر في نهايتها قط. شكوكيتها الفتية، كنظرية بسيطة، تظل أكثر بساطة من حقيقة الموت، حتى أنها بالكاد تبدو مسيحية مع تقدمها في السن، كما تعلم أنه يجب عليها أن

---

١ - نسبة إلى يوم السبت وهو يوم عطلة.

٢ - Peter the Great: بطرس الأكبر أو بيتر العظيم وهو قيصر روسيا الخامس؛ كان رجل المتناقضات، فكان عنيفاً قاسياً عديم الصبر انتقامياً ولكنه كان أيضاً شجاعاً بعيد النظر، ذكياً وحساساً.

٣ - Peter the Piper: بيتر الزمار، هو لقب صائد الفئران من القصة الشعبية؛ حيث استخدمه سكان مدينة هاملن الألمانية ليخلصهم من الفئران بمزماره السحري، وحين رفض أهل القرية دفع المال له استخدم قوى المزمار السحري وأخذ أطفالهم بعيداً لينتقم منهم.

تكون. يبدو أن زوجتي تظن أن عليها أن ترتقي، وتكون معيناً لا ينضب للأبد. هي لا تؤمن بالعمر المتقدم، ولا بذلك الوعد الغريب في السهل المامّري[1]، زوجتي العجوز، عكس زوجة إبراهيم العجوز، ما كانت لتضحك بتهكم في داخلها.

كيف لي أن أطلق الأحكام، أنا الذي أجلس تحت ظل مدخنتي المريح، مدخناً غليوني المريح، برماد لا أمانع وجوده عند أقدامي، رماد لا أمانع وجوده إطلاقاً إلا في فمي؛ ومن أنا من ثمَ حتى أكون في حالة من عدم الممانعة. مع ذلك، حقاً، بطريقة رمادية بما فيه الكفاية، أن آتي على ذكر الإرهاق النهائي لأكثر الحيوات اشتعالاً؛ كيف لي أن أطلق أحكاماً على هذه الحيوية التي لا مبرر لها في زوجتي التي تأتي، أحياناً، وهذا صحيح، بخُلق وهدوء، ولكن غالباً بشجار واضطراب.

إن كان هذا الاعتقاد صحيحاً، أن ثمة في عقود الزواج قوة جذب، فبأي قوة نكبة يجب أن أكون مدفوعاً نحو زوجتي! إن كانت هي لا تطيق حُرقة الحاضر والماضي، وككأس من جعة الزنجبيل، تطفو هي ومكائدها؛ وبقوة مشابهة لها وهي تضع قدمها أرضاً، تضع محفوظاتها

---

١ – plain of Mamre: سهل مامر أو رامة الخليل وتقع على بعد ٣ كم شمال مدينة الخليل في فلسطين، وهو المكان الذي يروى أن النبي إبراهيم أقام فيه أكثر من مرة، وفيه بشرت الملائكة زوجته سارة بولدها إسحاق.

ومخللاتها، وتعيش معها في مستقبل متواصل؛ أو باكتمال تام من توقعات دقيقة عن الوقت والمكان، في توقها المستمر للصحف، ونهمها للرسائل. تطوي السنون السالفة، دون أخذ أي اعتبار للغد، لا تبحث إلا عن لا الجديد من أي شخص أو أي ربع من أي شيء، إنني لا أملك خدعة واحدة أو توقعاً على وجه الأرض، يحميني من المقاومة غير المتكافئة من تعديها غير المبرر.

إن لي نفساً قديمة، إنني أميل لقديمية الأشياء؛ ولهذا السبب أساساً أحب المونتاج القديم، والجبنة المُزْمنة، والنبيذ المعتق؛ وأتحاشى اليافعين من الناس، واللفائف الساخنة، والكتب الجديدة، والبطاطا المبكرة، وإني متيم جداً بكرسيّ ذي الأقدام الشبيهة بالمخالب، ومعقوف الأقدام العجوز ديكون وايت[1]، جاري، الذي مازالت تجمعني به جيرة قديمة، كرمة عنبي الملتوية، التي تستند بمرفقها على عتبة نافذتي في ليال الصيف، بينما أنا، من بين الأبواب، أستند على مرفقي لألاقي مرفقها؛ وفوق كل هذا، فوق هذا كله، أنا متيم بمدخنتي القديمة عالية التغطية. ولكن هي، مدفوعة بحبها للأحداث، لا تأخذ بشيء إلا

---

١ - Deacon White: وليم ديكون وايت (١٨٤٧ - ١٩٣٩) كان أشهر لاعبي البيسبول في أول عقدين ظهرت فيها هذه اللعبة بشكل إحترافي، عُرف بسرعته الفائقة نتيجة شكل قدميه المعقوفتين للداخل.

بالجِدة، لهذا السبب أساساً، تحب نبيذ التفاح الجديد في الخريف، وفي الربيع، كما لو أنها ابنة نبوخذنصر[1] نفسه، تنجرف بعنفوان خلف كل أصناف السَلطات والسبانخات، وللتحديد أكثر الخيار الأخضر (مع أن الطبيعة طوال الوقت تعاقب مثل هذه الأهواء الصبيانية غير اللائقة بكبار السن، بعدم السماح لهذه الأشياء بأن تتوافق معهم أبداً)، وأصبح لديها ولع كبير بعد اكتشافها مؤخراً لآفاق جديدة (حتى لا تكون هناك مقبرة في الباحة الخلفية)، وأيضاً بعد البورجنالية السويدية[2]، وفلسفة ربط الأرواح[3]، مع الرؤى الجديدة الأخرى، المتشابهة في الأشياء الطبيعية واللاطبيعية؛ والأمل الخالد، بصنع أسِرّة للزهور حتى إن كانت على الجانب الشمالي من المنزل؛ حيث تسمح رياح الجبل الكئيبة النادرة للأعشاب الضارة النحيلة المسماة بـ صعبة-الاختراق بأن تنمو فوق الأعتاب؛ وفي جانب الطريق تقبع أبخرة الأنابيب

---

١ - Nebuchadnezzar: نبوخذنصر أحد الملوك الكلدان الذين حكموا بابل، خاض عدة حروب ضد الآشوريين والمصريين وأنهى حكم سلالة داؤد، كما كان مسؤولاً عن بناء عدة أعمال عمرانية في بابل مثل الجنائن المعلقة وبوابة عشتار.

٢ - Sweden-borganism: أو الكنيسة الجديدة؛ حركة دينية تجديدية قامت في السويد إثر كتابات العالم واللاهوتي إيمانويل سويدنبرج الذي ادعى أن الوحي أمره باستبدال الكنيسة المسيحية بالكنيسة الجديدة التي تعبد إلهاً واحداً هو يسوع المسيح.

٣ - Spirit Rapping: شكل مزعوم من التواصل مع أرواح الموتى.

لينابيع أشجار الدردار الفتية؛ رغم عدم وجود أي أمل بإمتداد أي ظلال منها، إلا على أنقاض شواهد قبر ابنة حفيدتها. ولن ترتدي قبعة أبداً، لكنها تصنع من شعرها الرمادي ضفائر؛ وتأخذ بمجلة السيدات للأزياء؛ وتشتري دائماً روزنامة قبل شهر من السنة الجديدة؛ وتنهض في الفجر؛ وللشمس الأدفأ تدير كتفاً بارداً؛ وتواصل الدراسة في ساعات غريبة لمقررها الجديد في التاريخ، ولغتها الفرنسية، وموسيقاها، وتحب الصحبة الشابة؛ وتبدي استعدادها لامتطاء المهور الصغيرة؛ وتضع البراعم الفتية في الحقل، ولديها احتقار لكرمة عنبي القديمة ذات المرفق، وجاري العجوز معقوف الأرجل، وكرسيّ ذي الأقدام الشبيهة بالمخالب، وفوق كل شيء، فوق فوق كل شيء، فإنها مستعدة لتضطهد بسرور، يصل إلى الموت، مدخنتي القديمة عالية التغطية. وإني أفكر ألف مرة، بأي سحر ضال، يمكن لامرأة عجوز في خريف عمرها أن تمتلك مثل هذه الروح الربيعية؟ حين أعترض على حكم الأزمان، تلتف جانباً عني وتبادر بالقول "أوه، إياك والتذمر، أيها الرجل العجوز (إنها دائماً تدعوني بالرجل العجوز)، إنها أنا، إن أناي الشابة، هي التي تبقيك بعيداً عن الخمول". حسناً، أجزم بأن الأمر هكذا، نعم، في النهاية، إن هذه الأشياء لحسنة الترتيب. إن زوجتي، كواحدة من علاقاتها الضعيفة، تمتلك روحاً طيبة، كما أنها حسنة المعشر، إنها ملح الأرض، وليست بأقل من أن تكون الملح في

بحري، وفي ظروف أخرى كانت فيها غير مؤذية. هي وأيضاً رياحها الموسمية، التي تذروها كعاصفة قوية، في الاتجاه الوحيد بثبات صوب مدخنتي.

هي ليست بغافلة عن طاقاتها المتفوقة، زوجتي جعلتني مراراً أفترض أخذها على نفسها كل مسؤوليات علاقاتي. إنها راغبة بأن أعترف أن علي، منزلياً، أن أتنازل؛ وأتخلى أكثر عن تلك السُلطة، مثل المبجل كارلوس الخامس[1]، وأن علي أن أنسحب إلى أحد الأديرة، لكن بالفعل، إن المدخنة مستثناة، لدي بعض الصلاحية لأفرضها. لكن أمام تطبيق زوجتي المبتكر لمبدأ أن ثمة أشياء معينة تعود بالقانون للسلطة النسوية، أجد نفسي، بإذعاني السهل، قد تمت تعريتي بدرجاتٍ دون مرعاة، من صلاحية ذكورية فأخرى. لي حلم أطوف فيه حول حقولي، بشيء من الكسل، لا هم عندي، "**ما من نفع منه، لير المتسكع العجوز**"[2]. وحدها شذرات من الوحي الفجائي تذكرني بمن في

---

١ - venerable Charles V: كارلوس الخامس، حكم إمبراطورية مترامية الأطراف، فقيل إن الشمس لا تغيب عنها. وفي أواخر حياته، تنازل عن العرش موزعاً ملكه بين ابنه فيليب الإسباني وأخيه فرديناند، وانسحب للعيش في أحد الأديرة في عام ١٥٥٧.

٢ - old Lear: مسرحية تراجيدية كتبها شكسبير بين عامي ١٦٠٣ و١٦٠٦، وضعها النقاد على قمة ما كتب شكسبير باعتبارها تنتمي إلى العصر الحديث أو تحمل بذور الحداثة.

إثري؛ كالسنة قبل الماضية، يوم رؤيتي في إحدى زوايا المنزل ودائعَ طازجة من الألواح والأخشاب الغريبة. إن غرابة الحادثة ولّدت فيّ على الفور تأملاً خطيراً. "زوجتي" قلت أنا، "لمن هذه الألواح وتلك الأخشاب التي أرى قرب الحقل هناك؟ هل تعلمين أي شيء بشأنها، يا زوجتي؟ من وضعها هناك؟ أنت تعلمين أنني لا أحب أن يستخدم الجيران أرضي بهذه الطريقة، يجب عليهم أن يطلبوا الإذن أولاً."

طالعتني بابتسامة مُشفقة.

"لمَ، أيها الرجل العجوز، ألا تعلم بأنني أبني إسطبلاً جديداً؟ أما علمت هذا، أيها الرجل العجوز؟".

هذه هي المرأة العجوز المسكينة التي كانت تتهمني بممارسة الاستبداد عليها.

عودة الآن إلى المدخنة. بعد غدوّي مؤكداً من لا جدوى صالتها المقترحة، مادامت العَقبة باقية، كانت زوجتي منهمكة في مشروعٍ إصلاحي ما لبعض الوقت. لكنني لم أستطع أبداً أن أستوعبه تماماً. أبعد ما يمكنني التكهن به، هو أنه ينطوي، على ما يبدو، على إدخال الفكرة العامة بنوع من المداخل المقنطرة غير المنتظمة، أو الأنفاق المكوعة، التي سوف تخترق المدخنة عند نقطة مناسبة ما تحت السلالم، متجنبة بحذر المحتوى الخطير في المواقد، وخصوصاً أنها تتوجه متفادية

الأنبوب الداخلي الكبير، إنها تقود المسافر المغامر من الباب الأمامي طوال الطريق دخولاً إلى غرفة الطعام في الخلفية البعيدة عن المسكن. إن خطتها تلك بلا شك، كانت ضربة عبقرية جريئة، وكذلك كان شأن نيرون عندما خطط لقناته الكبيرة من خلال مضيق كورنثوس[1]. ولا أنا آخذ عليها بعهدٍ، أن يتم إنجاز مشروعها، لاحقاً، بالاستعانة بالأضواء المعلقة بمسافات محددة في نفق، قد ينجح بلزوني[2] أو غيره في العصور المستقبلية في اختراق المبنى، والانبثاق في غرفة الطعام فعلاً، وما أن يكون هناك، سيكون من قلة الضيافة تجنب إعطاء مسافرٍ من هذا النوع وجبة خاصة بالجنود.

إلا أن زوجتي المهتاجة لم تقيّد اعتراضاتها، ولا هي حبست تعديلاتها المقترحة على الطابق الأول في النهاية. كان طموحها ذا ترتيب تصاعدي. لقد صعدت بمخططاتها إلى الطابق الثاني، وهكذا دواليك إلى العلية. ولربما كانت هناك بعض الأسباب الصغيرة وراء سخطها

---

١ - **Nero**: نيرون أو نيرو هو خامس وآخر إمبراطور روماني، راودته فكرة إعادة إعمار روما فأشعل فيها نيراناً استمرت لأسبوع بينما كان هو منتشياً يتسلى بالمنظر، أما مضيق كورونثوس فهو الجسر البري الذي يربط شبه جزيرة البيلوبونيز ببقية أراضي اليونان.

٢ - Belzoni: جوفاني باتيستا بلزوني، مستكشف ومغامر إيطالي وصل إلى مصر في عام ١٨١٥ وتمكن من نقل تمثال رمسيس الثاني وشحنة إلى انجلترا، كما كان أول من نقب في الهرم الثاني في الجيزة، وقام بحفريات في معبد الكرنك.

على بقاء الأشياء على حالها. الحقيقة هي أنه لم يكن ثمة ممر معتاد أعلى أو أسفل السلالم، إلا إذا استثنينا مجدداً رواق الاوركسترا الصغير سالف الذكر ذاك. وكل هذا كان بسبب المدخنة، التي يبدو أن حَرمي الماكرة مرغمة على رؤيتها كمُضطهِدة المنزل. على جوانبها الأربعة كلها، كل الحجرات مجانبة للمدخنة تقريباً للاستفادة من أحد المواقد. ما كانت المدخنة لتذهب إليهم؛ هم عليهم أن يكونوا بحاجة للذهاب إليها. والعاقبة كانت، أن كل غرفة تقريباً، مثل نظام فلسفي، كانت نفسها مدخلاً، أو ممر عبور إلى الغرف الأخرى، ونظام الغرف هو - جناح كامل من المداخل، في الواقع. بمروركم عبر المنزل، يكون الأمر أشبه بذهابكم نحو مكان ما إلى ما لا نهاية، فلا تصلون إلى أي مكان أبداً. هو أشبه بأن يضيّع المرء نفسه في الغابات؛ تدورن وتدورن وتمرون قرب المدخنة. وإذا ما وصلتم أخيراً، فستصلون إلى المكان الذي بدأتم منه، وهكذا تبدؤون من جديد، ومن جديد، لا تصلون إلى مكان. فعلاً - مع أنني لا أقولها بطريقة المنتقد على الإطلاق - لم يكن ثمة مسكن متاهي مماثل له. إن ضيوفي يبقون عندي بضعة أسابيع، وبين الحين والآخر، تتجدد دهشتهم بشِقة لم يسبق لهم رؤيتها من قبل.

الطبيعة المحيرة للمسكن، والناتجة من وجود المدخنة، يمكن ملاحظتها بشكل خاص في غرفة الطعام، التي لا تقل أبوابها عن

التسعة، وهي تُفتح في كل الاتجاهات، وتُفضي لمختلف أنواع الأماكن. إن الغريب الذي يدخل غرفة الطعام هذه للمرة الأولى، وتلقائياً لا يلقي اهتماماً مميزاً لمعرفة من أي باب دخل، قبيل نهوضه للمغادرة، سوف يرتكب أغرب الأخطاء. على سبيل المثال، عند فتحه أول باب في متناول اليد. سيجد نفسه يختلس النظر إلى أعلى السلالم من الممر الخلفي. فيغلق ذاك، وسيواصل إلى آخر، ويصاب بالذعر من القبو الذي يتثاءب عند قدميه. فيجرب ثالثاً، فيفاجئ الخادمة في عملها. في النهاية، لا مزيد من الاعتماد على جهوده الغير مجدية، فيلتمس العثور على دليل موثوق في أي شخص عابر، أو كأي متخبط فضولي قد يخرج بنجاح في أي وقت. كان ذلك شأن سيد شاب أنيق، عظيم الروعة، رأى في ابنتي آنّـــا بعيونه الحصيفة خِدمة مميزة. نادى على الآنسة الشابة ذات ليلة، ووجدها وحيدة في غرفة الطعام منكبة على عملها في التطريز. كان قد بقي لوقت متأخر؛ وبعد فيض من الحديث الرقيق، طوال تلك الفترة كان ما يزال فيها ممسكاً بقبعته وعصاه، أدى تحية الـ "بروفوفس آديوس"[1] خاصته، وبتكرارات تتسم بالكياسة كان ينحني هامّاً بالرحيل، كفرد من حاشية ملكية، وهو يقوم بذلك، كان يفتح باباً بعشوائية، وإحدى يديه موضوعة خلفه، وتمكن من حشر

---

١ – profuse adieus: بمعنى وافر وداعي باللاتينية.

نفسه بنجاح داخل غرفة مؤن مظلمة، وهناك أغلق على نفسه بعناية، متسائلاً عن سبب عدم وجود إنارة في المدخل. بعد تناهي عدة أصوات غريبة وكقط محشور بين جرار من الفخار، عاود الظهور من نفس الباب، وكان يبدو مكتئباً بشكل استثنائي، ومحرجاً بشدة، طلب من ابنتي أن تحدد أي الأبواب التسعة سوف يعثر منه على المخرج. حين أخبرتني آنّـــا المشاكسة بالقصة، قالت إنه كان من المفاجئ أنه بدا غير متأثر. وفي الحقيقة فإن تصرف السيد الشاب هذا كان سبباً لمعاودته الظهور. ولقد كان أكثر إخلاصاً من السابق، ليكون حريصاً؛ على ألا يحشر صِغاره البيض في درج مفتوح من سكر هافانا[1]، تحت هذا الانطباع، ربما، يكون هذا ما يسمونه بالصحبة الحلوة[2]، قد يكون مسلكه ربما واقعاً في ذلك الاتجاه.

نتيجة أخرى غير ملائمة بسبب المدخنة، هي إرباك الضيف حتى يحصل على حجرته، فثمة العديد من الأبواب الغريبة التي تحول بينه وبينها. سيكون من الغريب توجيهه بأعمدة الأصابع[3]؛ بقدر غرابة

---

١ - المقصود بالأطفال البيض هو القفازات البيضاء التي كان الشاب يرتديها، وحين دخل غرفة المؤن المظلمة حشر يده في جرة من السكر.

٢ - a sweet fellow

٣ - fingerpost: عمود في الطريق يحمل أسماء الأماكن المعروفة كلٌ حسب اتجاهها، وتسمى كل لافتة باسم تحمله وتدل على اتجاه معين بالإصبع.

طرقه كل الأبواب في طريقه، كالملك في تمبل بار[1] حين يحل ضيفاً على مدينة لندن.

الآن، من بين كل هذه الأمور، وغيرها الكثير، عائلتي تتذمر باستمرار. على الأقل جاءت زوجتي بأسبابها الكاسحة - لإزالة مدخنتي كلياً.

"ماذا" قلت أنا، "إزالة المدخنة؟ إن اقتلاع أساس أي شيء، يا زوجتي، لمسألة خطيرة. كالأعمدة الفقرية من الظهر، والمداخن من المنازل، إن الأمر لا يؤخذ به مثل الأنابيب المغطاة بالرصاص في الأرض. إلى جانب"، أضفت أنا، "أن هذه المدخنة هي المُعمِر الأكبر الوحيد من هذا المسكن. إن لم يزعجها المبتكرون، في الدهور المستقبلية، سينهار هذا المنزل برمته دونها، هذه المدخنة سوف تبقى - نُصباً تذكرياً لبونكر هيل[2]. كلا، كلا، يا زوجتي، لا أستطيع إلغاء أساسي".

هذا ما قلته وقتئذ. ولكن من ذا الذي يثق بنفسه، لاسيما إن كان رجلاً عجوزاً، زوجته وبناته دوماً عالقات على كوعه وأذنه؟ بمرور

---

١ - Temple Bar, London: أحد مداخل مدينة لندن من الجانب الغربي وهي مرتبطة باحتفال تاريخي قديم يتوقف فيه الملك أمام بوابة تمبل بار ويطلب الإذن للدخول فيأذن له العمدة بذلك ويقدم له سيف الدولة دلالة على الولاء.

٢ - معركة بونكر هيل في السابع عشر من يونيو ١٧٧٥.

الوقت، تم إقناعي للتفكير بالأمر بشكل أفضل قليلاً؛ باختصار، بأن آخذ الأمر بأولوية الاعتبار. في النهاية آل الأمر أن يمر بنّاء الخبير - نوع تقريبي من المهندسين المعماريين - السيد سكرايب، كان قد استُدعي لاجتماع. عرفته برسمية إلى مدخنتي. بعد أن عرفته بي مقدمة سابقة من زوجتي. لم يكن سوى مُستخدم صغير عند تلك المرأة، لإعداد الخطط وتقدير بعض عملياتها الحفرية الواسعة. بعد كثير من الجلبة، أخذت من زوجتي عهداً بأن تدعنا نقوم بعملية المسح بلا مضايقة، بدأت بتوجيه السيد سكرايب نزولاً إلى جذر المشكلة، في القبو. ونزلت ومعي قنديل في يدي؛ مع أن الوقت كان ظهراً في أعلى الدرج، إلا أنه كان ليلاً في الأسفل.

وكما لو كنا داخل الأهرامات؛ كانت إحدى يدي تمسك بقنديل فوق الرأس، والأخرى تشير هناك، نحو الغياهب، بدت كتلة المدخنة العجوز، كدليلٍ عربي، تبيّن الضريح البيتعنكبوتي للاله العظيم آبيس[1].

"إن هذا لهو الهيكل الأروع، يا سيدي"، قال البناء المحترف، بعد أن تأملها مطولاً بصمت، "الهيكل الأروع، يا سيدي".

---

١ - Apis: لقب العجول التي كانت تدفن في مقابر سرابيوم بسقارة، وقد تم العثور على تماثيل برونزية له ترجع للحكم في مصر القديمة. وكان العجل الذي يتم اختياره بلون أبيض به بقع سوداء في الجبهة والرقبة والظهر.

"أجل" قلت أنا برضا، "الجميع يقول هذا".

"لكن بالاتساع الذي تبدو عليه فوق السقف، ما كنت لأخمن بُنية الأساس، سيدي" قال وهو يعاينها بانتقاد.

ثم أخرج مسطرته، وقاسها.

"اثنا عشر قدماً مربعاً؛ مائة وأربعة وأربعون قدماً! سيدي يبدو أن هذا البيت ببساطة، بني لتتكيف فيه مدخنتك".

"أجل، مدخنتي وأنا. الآن، قل لي بصراحة"، أضفت أنا "هل كنت لتزيل مثل هذه المدخنة المشهورة؟".

"ما كنت لأحظى بها في منزلٍ لي كهدية، سيدي" كان الرد. "إنها قضية خاسرة، سيدي. هل تعلم، سيدي، أنك باحتفاظك بهذه المدخنة، تخسر، ليس المائة وأربعة وأربعين قدماً من المساحة الأرضية الجيدة فقط، ولكنك أيضاً تخسر بالمثل فائدة كبيرة لأساس معتبر؟".

"كيف؟".

"أنظر، سيدي!" قال هو، آخذاً شيئاً من الطبشور الأحمر من جيبه، وبدأ بالرسم على حائط مغسول بالبياض، "ثمانية في عشرين مرة هو كذا وكذا؛ ثم تسع وثلاثون في اثنين وأربعين مرة هو كذا وكذا -

أليس كذلك؟ حسناً، أضف هذه معاً، واطرح هذا هنا، فيكون الناتج كذا وكذا"، كان ما يزال مستمراً بالطبشرة.

لأختصر، بعد حساب غير بسيط، أبلغني السيد سكرايب أن مدخنتي محتواه على..، إنه ليخجلني أن أقول كم ألفاً ونيف من الطوب النفيس.

"هذا يكفي" قلت أنا متململاً. "صلِّ الآن[1] دعنا نلقي نظرة في الأعلى".

في المساحة العليا طُفنا مرتين إضافيتين على الطابقين الأول والثاني. بعد أن تم هذا، وقفنا سوية على قدم السلم عند المدخل الأمامي، كانت يدي على المقبض، وقبعة السيد سكرايب في يده.

"حسناً، سيدي" قال هو، متحسساً طريقه، متلمساً قبعته ليعين نفسه، "حسناً، سيدي، أظن أن من الممكن عمله".

"ماذا، بالله عليك، سيد سكرايب؛ ما الذي من الممكن عمله؟"

"مدخنتك، سيدي؛ يمكنك إبقاءها دون التسرع بإزالتها، أظن".

---

١ - pray now: طريقة قوية لقول "أرجوك".

"سأفكر في الأمر، أيضاً، سيد سكرايب". قلت أنا، مديراً المقبض منحنياً باتجاه الفضاء المفتوح دوننا، "سأفكر في الأمر، سيدي؛ الأمر يتطلب تفكيراً؛ عظيم امتناني لك؛ أسعدت صباحاً، سيد سكرايب".

"قُضي الأمر، إذاً،" صاحت زوجتي ببهجة كبيرة، منبثقة من أقرب غرفة.

"متى سوف يبدأون؟" طالبت ابنتي جوليا بجواب.

"يوم غد؟" سألت آنّـا.

"صبراً، صبراً، عزيزاتي"، قلت أنا، "مثل هذه المدخنة الكبيرة لا تُزال في دقيقة".

في الصباح التالي بدء الأمر مجدداً.

"أنت تتذكر المدخنة"، قالت زوجتي. "زوجتي" قلت أنا، "هي لا تغادر عقلي، ولن تغادر منزلي".

"لكن متى سيبدأ السيد سكرايب بهدمها؟" سألت آنّـا.

"ليس اليوم، آنّـا،" قلت أنا.

"متى، إذاً؟" بذعر طالبت جوليا بإجابة.

الآن، إن كانت مدخنتي هذه، تشبه في الحجم، برج حراسة، ليخدعوني بشأنها، فستكون زوجتي وبناتي أجراساً، دائماً الرنين معاً، أو تستكمل نغمات بعضها عند كل وقفة، وزوجتي هي لسان الجرس[1] بينهن. إنه رنين في غاية العذوبة، والدَويّ والتناغم، أنا أعترف؛ لكن حينها، فإن أكثر الأجراس فِضّية يمكنه أن يصدر، أحياناً، رنيناً مخيفاً، مثل قدرته على أن يصدر صوتاً طروباً. وتبعاً لحساسية الموضوع المطروح، بدأ الأمر الآن يستدرك فيّ نكوصاً غريباً في المعارضة. بدأت الزوجة والبنات بعزف لحن جنائزي ناعم السوداوية على مسامعي.

بمرور الوقت أصاب زوجتي، حماس كبير، لتعلن لي، مُشيرة بإصبع، أنه طالما بقيت هذه المدخنة، فستراها شاهداً على ما سمته بعهدي المنقوض. ولكنها حين استنتجت أن هذا لم يفلح، في اليوم التالي، جعلتني أفهم أن على إحداهما هي أو المدخنة ترك هذا المنزل.

مدركاً بأن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد، تفلسفنا أنا وأنبوب غليوني في الأمر لفترة، وخلصنا أخيراً في ما بيننا، رغم ضعف ميل قلوبنا مع الخطة، ولكن طلباً للسلام، أنني حين خربشت رسالة للسيد سكرايب، كنت وقتئذ أحرر شهادة وفاة المدخنة.

---

١ – key-clapper: لسان الجرس، وهي القطعة المعدنية المتأرجحة بحرية داخل الجرس، واصطدامها بجدران الجرس المجوفة يصنع الرنين.

على اعتبار أنني، ومدخنتي، وأنبوب غليوني، كنا معاً لوقت طويل جداً، ثلاثة أخلاء عظماء، فإن السهولة التي وافق بها أنبوب غليوني على مشروع بهذه الكارثية ضد أفضل من في ثلاثيتنا، أو بالأحرى، الطريقة التي تآمرنا بها أنا وأنبوب غليوني، في السر، كما كان، ضد رفيقتنا الغافلة العجوز - قد تبدو غريبة، إن لم تكن باعثة لانعكاسات حزينة على كلينا. ولكن، بالفعل، نحن، أبناء الطين، أنا وغليوني، لسنا أفضل بمثقال ذرة من البقية. كان من المستبعد عنا، بالفعل، أن نتطوع لخيانة صديقتنا. كما أننا من طبيعة مسالمة، ولكن هذا الحب للسِلم هو ما جعلنا نغدر بصديقتنا المشتركة، وسرعان ما تطلبت قضيتها إثباتاً قوياً. لكن، يسرني أن أضيف، أن أفكاراً أفضل وأشجع قد تواردت، كما سيأتي الآن بإيجاز.

رد السيد سكرايب بحضور شخصي، على رسالتي.

مرة أخرى قمنا بإجراء عملية مسح للمكان، برؤية تقدير مالي بشكل عام هذه المره.

"سأفعلها لقاء خمسمائة دولار"، قال السيد سكرايب أخيراً، مجدداً كانت القبعة في اليد.

"حسن جداً، سيد سكرايب، سأفكر في الأمر"، أجبت أنا، مجدداً كنت أنحني به نحو الباب.

غير مغتاظ، في المرة الثانية، من هذا الرد غير المتوقع، مجدداً انسحب هو، ومن زوجتي، ومن بناتي مجدداً انبثقت التساؤلات.

الحقيقة هي أنني كنت ما أمكنني عازماً، بعد القرصة الأخيرة، على أنني ومدخنتي لا يمكن أن نفترق.

"إذاً فسيحصل هولوفورنس[1] على مبتغاه، غير مبال بقلب من لأجله سيحطم،" قالت زوجتي في الصباح التالي، عند الإفطار، بتلك الطريقة النصف وعظية، نصف جنائزية الخاصة بها، والتي هي أصعب على الاحتمال من أكثر إساءاتها المفعمة بالحيوية. هولوفورنس، معها أيضاً هو اسم تدليل لأي استبداد منزلي عنيف. لذا، في أي وقت، أخالف ابتكاراتها الطموحة، تلك التي وضعتني عكس التيار إلى حد كبير، إنني، كما في اللحظة الراهنة، أقف بكل ما أملكه من بعض الصمود في وضعية الدفاع، بالتأكيد هي سوف تنعتني بهولوفورنس، وبنسبة عشرة إلى واحد ستستغل أول فرصة لتقرأ بعلو الصوت، وبتأكيد مكبوت، ذات ليلة، أول فقرة من صحيفة عن عامل بالأجر

---

١ – Holofernes: هولوفورنس، قائد قوات نبوخذنصر الذي كلفه بالانتقام من "أُمة الغرب" التي رفضت تقديم العون له، ورغم تحذيرات الإله آشور له من إيذاء اليهود قام بمحاصرتهم وتعذيبهم حتى قامت أرملة يهودية اسمها جوديث بإغرائه وقطع رأسه بينما كان نائماً.

اليومي، بعد أن كان لسنوات طويلة كاليغولا[1] لعائلته، ينتهي به الأمر بضرب زوجته المعذبة طويلاً حتى الموت، بباب عُليّة مخلوع من مفاصلة، ومن ثم، يقوم بقذف صغاره الأبرياء من النافذة إلى الخارج، وبعدها ينطلق بانتحارية إلى الداخل نحو الجدار المكسور، المثقب بفواتير الجزار والخباز، ويندفع بتهور ليلاقي حتفه المرعب.

إلا أنها، لبضعة أيام، وهو ما ليس قليلاً لدهشتي، لم يتناهَ إلى مسمعي المزيد من اللوم. هدوء كثيف اجتاح زوجتي، ولكن يا ترى ماذا يكمن تحته، كما في البحر، لم يكن هناك علم بأي حركة محتملة قد تدور هناك. كانت تذهب إلى الخارج بتذبذب، وفي اتجاه ظننت أنه لم يكن غير مريب، أعني، في اتجاه نيو بيترا، منزل شبيه بالغريفين[2] مصنوع من الخشب والجص، بأرقى أساليب فن الزينة، تزينه أربع مداخن على هيئة تنانين منتصبة وتقذف الدخان من مناخيرها؛ إن البيت الأنيق العصري للسيد سكرايب، والذي بناه في سبيل عمل

---

١ - Caligula: كاليغولا وهو ثالث إمبراطور روماني ويعتبر أشهر طاغية في التاريخ الإنساني معروف بوحشيته وجنونه وساديته، له صلة قرابة من ناحية الأم بالإمبراطور نيرون الذي أحرق روما. اغتيل كاليغولا في السنة الـ٤١ ميلادية.

٢ - griffin: مخلوق أسطوري برأس وجناحي نسر وجسد أسد، يتم تصويره عادة بآذان مدببة وتأخذ أرجل النسر مكان الأقدام الأمامية.

إعلان دائم، لا يشي بذوقه كمهندس معماري، بقدر ما يبين جموده كبنّاء خبير.

في النهاية، وأنا أدخن غليوني ذات صباح، سمعت طرقاً على الباب، وزوجتي بأنفاس هادئة غير معتادة منها أتت إلي برسالة. بما أنه ليس لي أي مراسلين باستثناء سولومون، الذي على الأقل، أستجيب كلياً لتصريحاته، سببت لي الرسالة مفاجأة صغيرة، لم تغب عني عند قراءة التالي: -

نيو بيترا، الأول من أبريل.

سيدي، أثناء تفحصي السابق لمدخنتكم، لعلكم لاحظتم أنني قد مررت بمسطرتي عليها مراراً بطريقة بدت غير ضرورية. ربما، أيضاً، في الوقت نفسه، كنتم تراقبونني بقليل أو كثير من الارتباك، والذي، على كل حال، امتنعت عن إعطاء أي تعبير شفهي عنه.

والآن أشعر أنه من الواجب عليّ إبلاغكم بما لم يكن في وقتها أكثر من شك مبهم، ومثله ما كان من الحكمة أن يُتفوه به، والذي الآن، بعد

حسابات لاحقة عدة دون افتراض لأي احتمالية صغيرة، لعله من المهم ألا تظلوا غافلين أكثر عنه.

إنه من واجبي الرسمي أن أحذركم، سيدي، عن وجود سبب معماري للظن بوجود مكان خفيّ في مدخنتكم ثمة مساحة محفوظة، مغلقة بإحكام، باختصار، غرفة سرية، أو بالأحرى خزانة. منذ متى كانت هناك، يستحيل بالنسبة إلي أن أقول. ما هو المحتوى المختفي، بنفسه، في الظلمة. عدا أن يكون ربما خزانة سرية ما كانت لتبتدع إلا لشيء غريب، سواء كانت لإخفاء كنز، أو أي سبب آخر، من الأفضل أن يترك الأمر لمن هم أكثر مني إلماماً بتاريخ المنزل ليحزروا.

لكن حسبي، بقيامي بهذا الكشف، يا سيدي، أن يرتاح ضميري. أياً تكن الخطوة التي تتخذونها بشأنه، هي بالتأكيد لا تشكل أي أهمية بالنسبة إلي؛ مع أنني، أعترف، أنه مع احترامي لشخص الخزانة، لا يسعني إلا أن أشارك الأمر بفضول طبيعي. موقناً بأنكم ستصلون لرشاد السبيل، في

تحديد إن كانت السكنى في بيت يحوي خزانة سرية
من شيم المسيحيين، مع فائق احترامي، سوف
أظل، المتواضع لكم أبداً،

هايرم سكرايب.

أول فكرة راودتني حين قرأت هذه الرسالة، لم تكن حيال الغموض المزعوم. في البدء، إذ إنها ألمحت إلى شيء لم ينتبني على الإطلاق من مراقبة البناء الخبير خلال مسحه للمكان - لكن حيال قريبي، القبطان جوليان داكريس، قائد سفينة لوقت طويل وتاجر في التجارة الهندية، والذي مات عازباً، قبل ثلاثين عاماً، في عمر التسعين اليانع، وفي هذا البيت بالذات، الذي بناه هو، وكان يفترض به أن يتقاعد في الريف مع ثروة كبيرة.

لكن المفاجأة الكبرى كانت أنه، بعد صرف مبلغ هائل في بناء هذا القصر لنفسه، استقر بوقار، كتوم وغير مكلف لكبار السن، مما جعل الجيران يظنون أن هذا لصالح ورثته: لكن ها! إبان فتح الوصية، وجد أن أملاكه تنحصر في هذا المنزل والأراضي، وبضع عشرة آلاف من الأسهم؛ ولكن وجد أن هذا المكان مثقل بالرهن، فبالتالي تم بيعه. قضت الإشاعة يومها، تاركة العشب يزحف على قبر القبطان، حيث

كان ما يزال ينام بخصوصية وبلا مضايقات كما لو أنه نائم على وسائد المحيط الهندي، بدلاً من أن تنزلق عليه الخضرة الداخلية. مع ذلك، أذكر منذ زمن طويل، تناهي تحليلات غريبة لمسامعي من سكان الريف بشأن الغموض الذي يكتنف وصيته، وما ينعكس عليها؛ وهذا، أيضاً، في الضمير، كمحفظة. لكن الناس عجزوا عن فهم التقرير (الذي قاموا بعمله)، أن القبطان جوليان داكريس كان، في يومها، قرصاناً بورنيونياً[1]، بالطبع لم تكن ذات مصداقية في مفاهيمهم الضمنية. غريب ما تريده نزوات الشائعات الجامحة، هي مثل الفطر، تتشكل حول أي غريب أطوار دخيل، يستقر وسط سكان ريفيين، محافظاً على هدوءه لنفسه. ومع بعض المسالمة سوف يبدو سبباً رئيسياً للأذى. لكن ما قادني بشكل خاص لاستكشاف هذه الشائعات، كان بالتحديد تلك الإشارة إلى كنز خفي. كان ما حدث، أن ذلك الغريب (و هو نفسه الذي دمر السقف والمدخنة) الذي دُمرت الملكية العقارية على يديه بعد موت قريبي، كان من تلك الشخصيات، كان هذا أبسط دليل على تلك الأقاويل. كان قد سارع إلى فحصها، وإلى تمزيق الجدران وتفتيشها.

---

١ – Borneo: بورنيو: جزيرة كبيرة في أرخبيل الملايو، تتكون من كاليمانتان (تابعة لإندونيسيا)، صباح وساراواك (تابعة لماليزيا) وبروناي.

مع هذا، إن رسالة السيد سكرايب، تلح علي بشدة لاستعادة ذكرى قريبي، مما يتوافق بتلقائية مع ما كان غامضاً، أو على الأقل غير مفسر، حياله؛ تحدث في عقلي ومضات مبهمة لسبائك معدنية مع التماعات غريبة لجماجم. لكن أول فكرة هادئة سرعان ما طردت مثل هذه الأوهام، وبابتسامة هادئة، التفت صوب زوجتي، التي كانت في تلك الأثناء، جالسة في الجوار، نافدة الصبر بما يكفي، أجرؤ على القول، لتعرف من ذا الذي وضع في حسبانه أن يكتب لي رسالة.

"حسناً، أيها الرجل العجوز،" قالت هي، "ممَن، وعمَّ هي؟".

"إقرأيها، يا زوجتي" قلت، وأنا أناولها إياها.

قرأتها زوجتي، ومن ثم - يا له من انفجار! سوف لن أتظاهر بوصف مشاعرها، أو تكرار تعابيرها. يكفي أن ابنتيّ نوديتا سريعاً لمشاركة الحماس. على الرغم من أنهن لم يحلمن أبداً بوحي شخص مثل السيد سكرايب؛ ولكن مع أول اقتراح رأين غريزياً أشد الاحتمالات فيها. بتأييد، استحضرن أولاً قريبي، وثانياً، مدخنتي؛ زاعمات بأن السر الأساسي يتضمن السابق، والبناء الذي يساويه يتضمن اللاحق، رغم أن كلا الحقيقتين المعلومتين، كانتا على حد سواء منافيتين عقلياً لأي افتراض آخر غير الخزانة السرية.

ولكن طوال هذا الوقت كنت أفكر في نفسي بهدوء: هل يمكن أن يكون قد خفي عني أن سذاجتي في هذه اللحظة ستصب في مصلحة خطة ما لديهن؟ كيف يمكن الوصول إلى الخزانة السرية، أو كيف السبيل للوصول إلى أي يقين عنها على الإطلاق، دون القيام بمثل هذا العمل العنيف بمدخنتي حتى تطبق تشكيلتها من أعمال التخريب العبثية؟ حقيقة أن زوجتي تمنت التخلص من المدخنة، لم يحتج الأمر إنعكاساً ليظهر؛ وأن السيد سكرايب، بكل عدم اكتراثه المدُعى، لم يكن معارضاً ليحصل على خمسمائة دولار لقاء العملية. يبدو جلياً بشكل متكافئ، أن زوجتي قد قامت، في السر، بالتآمر مع السيد سكرايب، وأنا في الوقت الحاضر أُحجم عن التأكيد. ولكن حين أولي اعتباراً لعدائيتها ضد مدخنتي، والثبات الذي ستعتمد عليه في نهاية المطاف لتنفيذ مخططاتها، بسِكّينة أو بحيلة[1] تقدر عليها، لاسيما بعد أن أُحبط مخططها ذات مرة، لماذا، بالكاد أعلم عند أي خطوة من خطواتها أتفاجأ.

ثمة شيء واحد فقط كنت قد عزمت عليه، هو أنني ومدخنتي لن نتزحزح.

---

١ - by hook or crook

عبثاً كانت كل الاحتجاجات. في الصباح التالي ذهبت إلى الشارع، حيث لاحظت هناك علجوماً[1] عجوزاً شيطاني المظهر، كان لشجاعة استعماله وقع الخدش على سياج ممنوع، كافأه سيده بشكل بديهي، بزخرفة خشبية رباعية المحاور، على شكل طوق ليكون خَنّاقة. هذا العلجوم حاصرته وبعثرت عنه أخشن ريشاته. نتفته، وأخذته إلى المنزل، ثم شحذت قلمي، ناقشاً الرسالة التالية:

شيمني سايد،

الثاني من إبريل.

السيد سكرايب:-

سيدي ليكون في معلومكم، أننا نعيد إليكم شكرنا وثناءنا المشترك، ونلتمس الرجاء لنؤكد لكم، بأننا باقون، وافر الإخلاص نفسه.

أنا ومدخنتي

بالطبع، من أجل هذه الرسالة تحتّم علينا تحمّل بعض التوبيخات الحادة، ولكنها أوصلت أخيراً لبيان صريح مني أن رسالة للسيد

---

١ - gander: العلجوم هو ذكر البط.

سكرايب لم تغيّر في رأيي مثقال ذرة، وزوجتي، سعياً للتأثير علي قالت، من بين أشياء أخرى قد قيلت، أنها تتذكر جيداً، وجود إجراء قانوني حيال إبقاء الخزانات السرية يشبه جرم الاحتفاظ ببارود البنادق. لكنه لم يؤثر فيّ.

بعد بضعة أيام لاحقة، قامت زوجتي بتبديل مفتاحها.

كان الوقت قرابة منتصف الليل، وكان الجميع في مخادعهم عدانا، كنا جالسين، كل واحد منا على ركن مدخنة؛ هي، وإبرتها في يدها، بلا كلل تحيك جوروباً؛ أنا، وأنبوب غليوني في فمي، وبكسل أنسج أبخرتي.

كانت إحدى أول ليالي الاسترخاء في الخريف. كانت هناك نار في المدفأة، تحترق بضآلة. الهواء دوننا كان ثقيلاً وخاملاً؛ كان الخشب، بنظرة رقيبة، من النوع الذي يطلق عليه مُنَدّياً.

"ألق نظرة على المدخنة"، بدأت هي؛ "ألا ترى أنه لا بد أن يكون فيها شيئاً ما؟".

"نعم، يا زوجتي. فعلاً ثمة دخان في المدخنة، كالذي في رسالة السيد سكرايب".

"دخان؟ نعم، بالفعل، وفي عينيّ، أيضاً. كم تدخنان بشراهة أيها العجوزان الخبيثان الآثمان! هذه المدخنة الخبيثة العجوز وأنت".

"يا زوجتي،" قلت أنا، "أنا ومدخنتي نحب أن ندخن معاً، ذلك صحيح، ولكننا لا نحب أن نُشتم".

"حسبك، أيها الرجل العجوز العزيز،" قالت وهي تزداد لطفاً وتغيرّ الموضوع بعض الشيء، "حين تفكر في قريبك العجوز ذاك، أنت تعلم أن ثمة خزانة سرية في هذه المدخنة".

"فتحة رماد سرية، لماذا لا تفهمين الأمر؟ نعم، أجرؤ على أن أقول أن ثمة فتحة رماد سرية في المدخنة؛ إلى أين تذهب كل تلك الأشياء المتساقطة من تلك الفتحة الغريبة البعيدة؟".

"أعلم أين تذهب؛ كنت هناك بعدد المرات التي كان فيها القط هناك تقريباً".

"أي شيطان، يا زوجتي، دفعك للزحف في فتحة الرماد؟ ألا تعلمين أن شيطان القديس دونستن[1] انبثق من فتحة الرماد؟ ستلقين حتفك في أحد هذه الأيام، وأنت تستكشفين من حولك كما تفعلين، ولكن لنفترض جدلاً وجود خزانة سرية، ثم ماذا؟".

---

١ - St. Dunstan: القديس دونستن (٩٠٩ - ٩٨٨م) رئيس أساقفة تولى العديد من المناصب قبل اعتباره قديساً، تناولت عظمته عنه العديد من القصص، أشهرها تلك التي تتعلق بمكره الشديد في هزيمة الشيطان.

"ثم ماذا؟ ما الذي يجب أن يوجد في خزانة سرية عدا -".

"عظام يابسة، يا زوجتي،" انفجرت أنا بنفخة، بينما انفجرت المدخنة العجوز الأنيسة بمثلها.

"هاك مجدداً! أووه، كم تدفع بالدخان هذه المدخنة القديمة الرديئة"، وهي تمسح عينيها بمنديلها. "لا شك عندي أن السبب الذي يجعلها تُدَخن هو، أن تلك الخزانة السرية تتداخل مع الأنبوب. أمعن النظر، أيضاً، كيف أن الدعامات هنا تواصل الترسب؛ وهي هابطة من الباب حتى هذه المدفأة. هذه المدخنة الرهيبة العجوز سوف تسقط على رؤوسنا؛ ومع ذلك أنت تعتمد عليها، أيها الرجل العجوز".

"أجل، يا زوجتي، أنا أعتمد عليها؛ نعم بالفعل، إنني أضع كل اعتماد على مدخنتي. وبالنسبة إلى ترسباتها، فإنني أحبها. أنا، كذلك، إنني أترسب، كما تعلمين، في مشيتي. أنا ومدخنتي ترسبنا معاً، وسنواصل الترسب، أيضاً، حتى، كما لو كنا في سرير هائل من ريش، يستقر بنا المآل بعيداً عن مد النظر. لكن هذا الفرن السري؛ أعني، خزانتك السرية، يا زوجتي؛ أين تفترضين تحديداً مكان وجود هذه الخزانة السرية؟".

"هذا عائد للسيد سكرايب ليقرره".

"ولكن افرضي أنه لا يستطيع التحديد تماماً؛ ثم، ماذا؟".

"إنه لقادر على الإثبات، أنا متأكدة، أنها في مكان ما من هذه المدخنة الفظيعة العجوز".

"وإن لم يستطع إثبات هذا؛ ثم، ماذا؟".

"ثم، ماذا، أيها الرجل العجوز،" بنفس مفخم، "سأخفف من أقوالي عنها".

"موافق، يا زوجتي"، عدت أنا، ضارباً صحن فوهة غليوني على الدعامة، "والآن، يوم غد، للمرة الثالثة سوف أرسل في طلب السيد سكرايب. زوجتي، إن آلام عرق النسا تتمكن مني؛ كوني طيبة وضعي هذا الغليون على رف المستوقد".

"إن جئت لي بالسلم المتنقل، سأفعل. هذه المدخنة القديمة المُرَوّعة، إن رفوف هذه المدخنة القديمة المقيتة عالية جداً، لا أستطيع الوصول إليها."

ما من فرصة، مهما بلغت ضآلتها، تجعلها تتوانى عن قذف سخرية ما في هذه المعمعه.

هنا، بطريقة تعريفية، من الواجب الذكر، أنه إلى جانب وجود كل المواقد من حولها، كانت المدخنة، بالصدفة المحضة جداً، مشقوقة في كل طابق لخزائن صغيرة وسراديب فضولية خارج الطريق، بشتى

الأنواع والأحجام، مثبتة هنا وهناك، كالشباك المتشعبة من سنديانة قديمة. في الطابق الثاني كانت هذه الخزائن أكثر تفاوتاً وعدداً. ومع ذلك بالكاد ستكون كذلك، بما أن نظرية المدخنة كانت، أنها تتضاءل هرمياً كلما ارتفعت. إن مختصر مربعها على السطح كان واضحاً بما يكفي؛ وقد أُفترِض أن التقليص يجب أن يكون متدرجاً رياضياً من الأسفل إلى الأعلى.

"سيد سكرايب،" قلت أنا حين عاد ذلك الشخص مجدداً، في الصباح التالي، بهيئة متحمسة. "إن هدفي من الإرسال في طلبك هذا الصباح، ليس لترتيب عملية تقليص مدخنتي، أو خوض أي حديث معين عنها، لكن ببساطة لأسمح لك بكل وسيلة تأكيدية معقولة، إن استطعت تبيان، التخمين الذي نقلته في رسالتك."

مع أنه قد يكون في السر كان غير محبط بعض الشيء، من استقبالي البارد، وهذا مختلف جداً عن ما كان يبحث عنه؛ إلا أنه بكثير من البهجة الظاهرة شرع بالمسح؛ تاركاً الخزائن الصغيرة في الطابق الأول مفتوحة، ممعناً النظر في السراديب على الطابق الثاني؛ يقيس أحدها من الداخل، وثم يقارن ذلك القياس بالخارجي. مزيلاً ألواح المواقد، كان يحدق في الأنابيب. ولكن لا إشارة للعمل المخفي بعد.

الآن في الطابق الثاني كانت الغرف في أكثر ما يمكن تصوره من تشتت. لقد كانت، متعاشقة ببعضها البعض. بمختلف الأشكال؛ ليس من بينها كلها غرفة بشكل مكعب رياضي - ما لم يكن حسب البنّاء الخبير غير مخفي بالتحديد. بإهتمام، تجبناً لإستخدام تعبير واعد، أخذ محيط المدخنة، وقاس مساحة كل غرفة من حولها؛ ثم ذهب أسفل الدرج، وخارج الأبواب، وقاس مساحة الأرض بأكملها؛ ثم قارن المجموع الكلي لمساحات كل الغرف في الطابق الثاني بالمساحة الأرضية؛ وعاد إلي بحماس ليس بضئيل، معلناً أن ثمة فرق لا يقل عن مائتي قدم مربع ونيف - مساحة كافية، بكل أمانة، لخزانة سرية.

"ولكن يا سيد سكرايب،" قلت أنا، مداعباً ذقني، "هل وضعت الجدران كلها في الحسبان، الرئيسية والإقطاعية؟ إنها تأخذ بعض المساحة، كما تعلم".

"آه، لقد نسيت ذلك،" ناقراً على جبهته؛ "لكن،" ظل يحسب في ورقته، "ذلك لن يعوض النقص".

"لكن، سيد سكرايب، هل وضعت في الحسبان التجاويف المتعددة للكثير من المواقد في كل طابق، ولجدران النار، والأنابيب؛ باختصار، سيد سكرايب، هل فكرت في المساحة الحَقّانِيّة للمدخنة نفسها - ما

يقارب مائة وأربعة وأربعين قدماً مربعاً أو ما إلى ذلك، سيد سكرايب؟"

"يا له من تصرف غير مسؤول. غاب هذا عن بالي، أيضاً".

"هل غاب، حقاً، سيد سكرايب؟".

تلعثم قليلاً، وانفجر قائلاً، "لكن علينا الآن أن نضع بالاعتبار المائة وأربعة وأربعين قدماً مربعاً المرصودة للمدخنة. موقفي هو أن هذه الزوائد تقلل حدود الاستيعاب للخزانة السرية".

عاينته في لحظة صمت؛ ثم قلت:

"لقد انتهى مسحك، يا سيد سكرايب؛ فلتكن في غاية الطيبة ولتضع إصبعاً على الجزء الدقيق من جدار المدخنة حيث تعتقد أن هذه الخزانة السرية ستكون، أم أن عصاً من شجرة البندق السحرية ستساعدك، سيد سكرايب؟".

"كلا، يا سيدي، ولكن عتلة ستفعل" قال هو باستجابة حادة.

هنا، الآن، فكرت في نفسي، قفز القط من الكيس. نظرت إليه بنظرة هادئة، بدا مرتبكاً منها بطريقة ما. شككت الآن أكثر من أي وقت بوجود مؤامرة. تذكرت ما قالته زوجتي عن الانصياع لقرار السيد

سكرايب. بطريقة مهادنة، عقدت العزم على الاقتناع برأي السيد سكرايب.

"سيدي" قلت أنا، "إنني ملزم كثيراً بهذا المسح، حقاً. فقد وضع عقلي في راحة بال. وبلا شك، أنت كذلك يا سيد سكرايب، يجب أن تشعر بارتياح كبير يا سيدي،" أضفت، "لقد قمت بثلاث زيارات للمدخنة، بالنسبة لرجل الأعمال، فالوقت يساوي المال. ها هي ذي خمسون دولاراً، سيد سكرايب. ها!، خذها. لقد استحقيتها. رأيك يساويها. وبالمناسبة، " - بينما كان يستلم المال بتواضع - "هل يوجد لديك أي اعتراض بإعطائي أ.. أ.. شهادة صغيرة - شيئاً، قل، مثل شهادة الباخرة، تشهد أنك، مسّاح مختص، قد مسحت مدخنتي، ولم تعثر على أي سبب للاعتقاد بوجود أي خلل؛ باختصار، أي - أي - خزانة سرية فيها. هلا تكرمت، يا سيد سكرايب؟".

"لكن، لكن، يا سيدي،" تلعثم هو بتردد صادق.

"هاك، هاك هذا القلم والورقة" قلت أنا، بضمان كامل.

يكفي.

ذاك المساء وضعت الشهادة في إطار وعلقتها فوق موقد غرفة الطعام، واثقاً من أن النظرات المتواصلة عليها سوف تُخمد لمرة واحدة وأخيرة حيل وأحلام أهل بيتي.

لكن، لا. مصممة على الاستبداد بتلك المدخنة القديمة النبيلة، مازالت زوجتي حتى هذا اليوم تأتي على ذكرها، وابنتي آنّـــا بمطرقتها الجيولوجية، تنقر كل مساحة الجدار، ثم تضع أذنها لصقه، كما شاهدتُ طبيب التأمين على الحياة ينقر على صدر رجل، وبعدها تنحني عليه بحثاً عن الصدى. تكاد في بعض الأماسي أن تفزع المرء بحديثها عن هذه المهمة الشبحية، وهي ما تزال تتبع الاستجابة القَبرية للمدخنة، تدور وتدور، كما لو أنها تقودها نحو عتبة الخزانة السرية.

"كم تبدو مجوفة،" تصرخ صرخة جوفاء. "أجل، إنني أُصرّح،" بنقرة تأكيدية، "ثمة خزانة سرية ها هنا. هنا، في هذه البقعة بالتحديد. أصعوا! كم هي مجوفه!".

"هراء! يا زوجتي، بالتأكيد هي مجوفة. من سمع عن مدخنة مُصمتة؟". لكن شيئاً لم ينفع. وبدأت بناتي بالعبث، لا معي، بل مع أمهن.

أحياناً ثلاثتهن يتخلين عن نظرية الخزانة السرية تلك ويعدن إلى أرض الواقع للهجوم - عن القبح المتجسد في الكومة الثقيلة، مع تعليقات عن الإضافة الرائعة لغرفة تُدمج على أنقاضها، والتأثير الجميل للصالة الكبرى المقترحة، والنتائج المريحة للجري المباشر في اتجاه وآخر في مختلف أقسامهن. شراستهن فاقت تحالف العدوان

الثلاثي لتقسيم بولندا[1] المسكينة، زوجتي وبناتي كم كان ليسعدهن تقسيم مدخنتي.

لكن رؤيتي أنني ومدخنتي، رغم كل شيء، ما نزال ندخن أنابيبنا، جعلت زوجتي تعيد فتح موضوع الخزانة السرية، متوسعة بالتساؤل عن ماهية العجائب التي هناك، وكم هو مخز، ألا يتم البحث عنها واستكشافها.

"زوجتي"، قلت أنا، "في ظل هذه الأحداث، لماذا نطيل الحديث بشأن الخزانة السرية، بينما تتعلق أمامك هناك شهادة مناقضة من بنّاء خبير، اخترته بنفسك ليقرر. إلى جانب، أنه حتى لو كانت هنالك خزانة سرية، يجب أن تبقى سرية، وسراً سوف تكون. أجل، يا زوجتي، هنا لمرة علي أن أقول أن أذىً لانهائياً حزيناً قد نتج عن التفجير الدنس للتجاويف السرية. مع ذلك وقوفاً في قلب هذا البيت، حتى الآن نحن أوينا حولها، غير مرتابين البتة مما هو مخبأ داخلها، هذه المدخنة قد تحتوي أو لا تحتوي على خزانة سرية. ولكن إن وجدت،

---

١ - تقسيم بولندا أو تقسيم الكومنولث البولندي الليتواني هو تقسيم تم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وأنهى وجود الكومنولث البولندي الليتواني. حيث قامت كل من الإمبراطورية الروسية، ومملكة بروسيا وملكية هابسبورغ بتقسيم أراضي الكومنولث بينهم لتوسيع نفوذهم إقليمياً.

فهي عائدة لقريبي. وأمنية تحطيم الجدران المتوارية لموميوز[1] أعتبرها أمنية شاعت من سارق كنائس وغد. أجل، يا زوجتي، لقد كان موميوز غلام فارس حقير، يسترق السمع".

"موسى؟ الحُميراء؟ أشياءك المتعلقة بموسى والحُميراء؟"[2]

الحقيقة هي، أن زوجتي، شأنها شأن بقية العالم، لا تلقي بال تينة[3] بالثرثرة الفلسفية. في ندرة أي رفقة فلسفية أخرى، أنا ومدخنتي علينا أن ندخن ونتفلسف سوياً. ونظل مستيقظين حتى وقت متأخر جداً كما نفعل دوماً. دخان هائل ذاك الذي ننفثه نحن الفيلسوفين المدخنين العجوزين.

ولكن حَرمي، التي تحب أن تدخن من تبغي رغم قلة ما تفعل هذا مستخدمة السخام، تواصل حربها ضد الاثنين. إني أعيش في رعب دائم، كالوعاء الذهبي، أنابيبنا أنا ومدخنتي سوف تنكسر. ليبقى

---

١ - Momus: موميوز أو موموس باليونانية شخصية ظهرت في الأساطير اليونانية كتجسيد للسخرية، وفي عصر النهضة تم توظيفها أدبياً لنقد الطغيان ثم المجتمع المعاصر في وقت لاحق، وملفيل يصوّر السيد سكرايب بهذه الشخصية.

٢ - Momus موميوز، Moses موسى، Mumps مرض الحُميراء أو الحصبة الألمانية؛ وكلها كلمات على نفس القافية.

٣ - cares not a fig: لا يلقي بال تينة؛ بمعنى الاهتمام أو التفكير بشخص أو شيء ما وعادة ما تأتي في سياق سلبي.

مشروع زوجتي الجنوني، معدوم الإجابات. أو، بالأحرى، هي بنفسها تجيب باستمرار مضيّقة علي الخناق بحماسها المريع للتطويرات، الذي هو اسم أكثر نعومة للتدمير. يوم نادر ذلك الذي لا أجدها فيه مع شريط قياسها، تقيس صالتها الكبرى، بينما آنـــا تمسك بعصا قياس على أحد الجوانب، وجوليا تنظر باستحسان من الجانب الآخر. تحذيرات غامضة تظهر في أقرب صحيفة للقرية، مذيلة بالمُوقّع "كلاود"، فحواها أن بُنية ما، تقبع فوق إحدى التلال، لكنها بالمقابل تُخل بمنظر طبيعي جميل. رسائل مجهولة تصل، تهددني بما لا أدري ماذا، ما لم أُزل مدخنتي. كما أن زوجتي، أيضاً، أو أي من يكون، قَلب الجيران ضدي ليضايقوني بنفس الموضوع، ويلمحوا لي أن مدخنتي، كشجرة دردار ضخمة، تمتص كل النداوة من حديقتي؟ ليلاً، أيضاً، زوجتي تبدأ عند النوم، الإدعاء بسماع أصوات شبحية من الخزانة السرية. تهجم من كل حدب وصوب، سلام قليل ذلك الذي حظينا به أنا ومدخنتي.

لولا حاجتنا إلى الأمتعة، لكنا حزمنا أغراضنا معاً ورحلنا من البلد. كم كانت ضيقة مهاربنا! ذات مرة وجدت في أحد الأدراج ملفاً كاملاً لخطط وتقديرات. وفي وقت أخر، عند عودتي بعد يوم من الغياب، اكتشفت زوجتي واقفة أمام المدخنة وهي تخوض محادثة جادة مع

شخص ميزت فوراً أنه مُصلح معماري متطفل، لعدم امتلاكه موهبة في بناء الأشياء كان عازماً دوماً على اقتلاعها؛ في أجزاء مختلفة من البلاد ساد تخلف كبار سن بتدميرهم لمنازلهم قديمة الطراز، وتحديداً مداخنهم.

لكن أسوأها كان، تلك المرة التي عدت فيها بشكل غير متوقع في الصباح الباكر من زيارة للمدينة، وقبيل الوصول إلى المنزل، بالكاد نجوت من ثلاث كسرات جصية متساقطة. من علو شاهق، عند قدمي. كم كان مرعباً لي مشاهدة ثلاثة همج، وأنا أنظر إلى الأعلى، وهم متسرولين بالجينز الأزرق على وشك البدء بالهجوم الذي طال التهديد به. أجل، بالفعل. مفكراً بتلك الكسرات الجصية الثلاث، أنا ومدخنتي كانت مهاربنا ضيقة.

مضى الآن ما يقارب سبع سنوات منذ أن صرت ملازماً لمنزلي. أصدقائي من المدينة كلهم يتساءلون لم لا آتي لزيارتهم، كما في سابق الأوقات. إنهم يظنون أنني قد أصبحت شخصاً لاذِعاً وغير اجتماعي. البعض يقول إنني أشبه بكاره بشر مُطحلب عجوز. بينما الحقيقة طوال الوقت كانت، هي أنني ببساطة حارس دائم لمدخنتي المطحلبة العجوز؛ وهذا أمر محسوم بيني وبين مدخنتي، أننا أنا ومدخنتي لن نستسلم أبداً.